ماجد الجارد

سُولو



رواية

ماجد الجارد

سُولو

رواية

مؤسسة الانتشار العربي

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجارد ، ماجد
رواية (سولو). / ماجد الجارد .- مكة المكرمة ، ١٤٣٥هـ
..ص ؛ ..سم

ردمك: ٠-٧٧-٦١٧-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان
ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ١٤٣٥/١٥٨١

رقم الإيداع: ١٤٣٥/١٥٨١
ردمك: ٠-٧٧-٦١٧-٩٩٦٠-٩٧٨

سُولو

ماجد الجارد

رواية

نادي مكة الثقافي الأدبي
مكة المكرمة ـ الزاهر ـ 6586
هاتف: 025480133 / 025480144
فاكس: 025480508
المملكة العربية السعودية
البريد الالكتروني: adbimakkah@hotmail.com
الموقع الالكتروني: www.makkahclub.org.sa

الانتشار العربي

ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-526-8

الطبعة الأولى 2014

إهداء

إلى الذي هتف ذات حياة «خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد»

وعلت رأسه ذات خلود «هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد».

إلى اللواتي أفعمت قلوبهن بمرح الأطفال ودفء الأمهات رغم تبتل أرحامهن عن نبض الحياة.

إلى نورة زارعة الأمل التي لم تلدني ولكنها زرعت في شفتي (يمه).. رحمك الله.

ليس في الغاب عقيمٌ......... لا ولا فيها الدخيلْ
إنَّ في التمر نواةً......... حفظت... سر... النخيلْ
و بقرص الشهد رمزٌ......... عن... فقير وحقولْ
إنما... العاقرُ... لفظ......... صيغ من معنى الخمولْ

❀ ❀ ❀

أعطني الناي وغنِّ......... فالغنا... جسمٌ يسيلْ
وأنينُ الناي أبقى......... من مسوخ ونغولْ

جبران

سُولُو

ـ 1 ـ

أطراف المساء تتسلل خلف الستائر الخاشعة، وأصابع الظلّ تغتصبُ صمتَ النوافذ، يتناثر في المكان بضعة مقاعد خالية من جالسيها، وتتبخر أطياف وجوه كانت تتردد هنا.

يؤرجحني صمتُ البيت، ومخالبُ شتائي تخدش وجه السماء، وتدمي الذاكرة.. زخات حزني تهطل على الأثاثِ الساكنِ.

أستقرُّ على مقعدي الهزاز.. أمامي ساعة خشبية مثبَّتة على الحائط، بندولها المتدلّي يؤرجح عصفورهَا الذي ينقر الخواء.

يا سارة.. قد غادر جسدُكِ، وبقيتْ روحُكِ هنا في المكان.. كأنّي أراها تدفع الباب الموارب ببطءٍ وحذرٍ. ترقبني من طرفٍ خفيٍّ، أشعرُ بها تخفُّ أمامي إلى مطبخكِ، تقفُ إلى جانبي.. أعدّ عشائي على

عجلٍ، تسحبُ الكرسيَّ لتقاسمني خبزًا باردًا، وشريحة جبنٍ، تمدُّ لي كأسَ ماءٍ. وحين نظفت أسناني رأيتُ روحَكِ تقاسمني المرآة العاكسة لوجهي، الذي يتقاطر منه رغوة صابون ناصع البياض.

أحقًّا أصبحتِ جسدًا ممدَّدًا بلا روح، وأنّكِ لم تطيقي البُعاد، فأرسلتها لتروي ظمأكِ، وتحدّثكِ عن خبري ومآلي؟!

آه.. بمَ ستعود؟! وما ستنبئُك عنّي!

دخلت غرفة نومكِ. استنشقتُ رفات عطركِ الأثير، الذي تضعينَه على صدركِ الناهد، وكأنّك تعلمين أنَّها طلقاتٌ صوَّبها قناصٌ، ثم ترك ضحيتَه تتضرج بدمائها.

آه.. الآنَ أدركتُ لماذا كنتِ تعطّرين جسدكِ بانفعالٍ كلّما قررت الخروج! لعلكِ تريدين أن تستقبلني رائحتُكِ حين يتعذّر وجودكِ. هوسكِ بأن تتملكيني ظلَّ حاضرًا حتى بعد مماتكِ. دومًا تحيطينني بتفاصيلكِ كأنّكِ تعلمين أنّكِ راحلةٌ قبلي. والآنَ وأنتِ تنعمينَ في عالمكِ الآخر، هذه هي روحكِ تعيشُ معي تفاصيلَ ليلتي الأولى.. تراقب جسدي.. تدبُّ به الحياة، ولا يخفق لها.

ها أنا أرفعُ قنينة عطركِ، أكبسُ على رأسهَا فيتدفق الرذاذ الشفيف لامعًا تحت ضوء الأبجورة. يهبط متباطئًا على يدي، ويلتصق بمرآة التسريحة العريضة، باعثًا فيها ملامح طيفكِ العائد من العدم. ثم ضغطة ثانيةً، وثالثةً ورابعةً..

أطوف حول السرير منتحبًا، جاحظَ العينين، مشرع الذراعين، أحتضن أول ليلة وجعًا، أرفع القنينة الباكية عاليًا، وأهزّهَا.. أهزّهَا والدمع يسيل مني ومنها.. يتساقط وأسقط، ضباب حزني يتكثّف غيومًا، تتراكم لها مذاقات مالحة، وهزيم الرعد بين أضلعي يمزّق صمت الحجرة، وينابيع المآقي تتفجر طوفانًا يجتاح إلى أودية، وجنتي، وخدّي، وروحي. دموع العطر تنهمرعلى الأرضِ بين تموّجات الستارة، رذاذ ينهار معي على الأريكة الطويلة، وبضع دفقات باكيات فوق السرير، وكثير منها على وسادتكِ. كيف لامرأةٍ تترك خلفها طيفها مضمخًا بعطرها، ورائحة حنينها فوق سرير الغياب؟!

ـ 2 ـ

أفتحُ جفنيّ ببطءٍ وتثاقل، خدّي تحوّل إلى قاع وادٍ اكتسحَهُ سيل دمع كان يهدر طوال الليل.. قنينة عطركِ ملقاة، ورأسها المعطوب يتدلى منها.. الستارة مشرعة بأذيالها المنهكة، فقد كابدت ريحًا عصفت طوال الليل.

أحتضنُ ملاءتكِ، وأفترشُ قطعةً من قميصكِ، أمهدُ وسادتي منشفتكِ.. إني جثة نورسٍ مطروحة فوق شطآن غيابكِ، يغمرني موجكِ المبحوح بتتابع عنيف، مُمدّدًا تحت شمسكِ، مستقبلًا ثاني أيام رحيلك، وقد جفَّ الدمع في عيني، وانحسر ماء الحياة عن شواطئي. تتحرك أوصالي متثاقلة، تنبش السرير الهش، كسلحفاة صغيرة تحاول التخلّص من بيضتها المدفونة تحت الرمل.

ها أنا أتعثَّرُ بضعفي أمام طغيان رائحتكِ التي تركتهَا وديعةً بين أصابعي، وسطوة غيابكِ بكلِّ تفاصيل حضوركِ، تصميمُ ديكور الغرفة، ألوانُ الملاءات،

والحائط، وأركانها التي تجلس فيها دُماكِ الأنيقة، رائحةُ أنفاسكِ المتشبّثة بالوسادةِ. ألتقطُ شعرةً طويلةً، أتأمّلهَا خاشعًا، أعقدها حول أنملتي، ثم أفلها، طويلة بيضاء تشتعل تحت ضياء الصبح. كأنَّها شرر فرّ من أتونِ حرائقي. أسلمتها إلى فمي أتذوّقها، ألثم طللًا من جسدٍ قد ارتحل، ثم أستودعها دفتي كتاب، عازمًا أن تغدو كتبي التي سأقرأها توابيت لشعرة الغياب.

في المرآة كنتُ أنظر إلى وجهي الشاحب، وسحابة ألم قاتمة تستقر أسفل عيني، إنّه وجهٌ أصفرُ كصفرةِ ورقةٍ اغتصبهَا الخريفُ، وانتهكتها أرصفة الرحيل.

أهب وجهي حفنة ماء، فيتقاطر منه وضوء بارد طاهر، ثم استقبلني طيفكِ يحملُ منشفتي.

صلّيتُ، رفعتُ يدي للسماء: يا رب.. كما ربطت على قلوب فتية أهل الكهف، اربط على قلبي.. ربِّ كما أذهبتَ حزنَ يعقوب، ورددت له يوسف، رُدَّ لي طمأنينتي. ربِّ.. ربِّ.. ربِّ كن معها ومعي.

ـ 3 ـ

أغادر بيتي، وشعور بالوحدة يتضخم داخلي، ممزّقًا عباءة الفجر، أقودُ سيارتي لا أعلم إلى أين أمضي!

ألاحقُ نور الشمس يقبل من خلف أسوار العتمة، مشعلًا السماء المشرقة، طرقات المدينة خالية.. أيمم البحر القريب. كان الرصيف الحجري خاليًا، ومقاعده تتهيأ لتحتفي بعشاق الصباحات. تخطيتُ السياج المعدني اللامع، غير بعيد منّي جدائل الموج تقبل عالية ثائرة، ثم تتمزق أحشاؤها على تعرّجات الشط، منحصرًا زبده كمهاد أبيض يفترش زرقة البحر، راشقًا وجهي وجسدي قطرات مالحة..

صدري يعلو وينخفض، أرجّح داخله هواءً طازجًا مشبعًا باليود؟ تحتضن صخرة ذكرياتي ألوان البحر ورائحته، واهبًا روحي حالة من الاسترخاء والسكينة، معيدًا انتظامها الذي افتقدته منذ وفاة سارة.

أتابعُ سرب نوارس يحلّق بين زرقتين كحلقة من ريش معلّقة، تبحث عن لقمة سابحة لامعة، يلتقطها أكثرهم خفةً، ثم يعود يكمل تطوافه.

إني منارة من طين لازب، مهجورة على طرف الشاطئ، تستقبل الصبح وشعاع الشمس دون أن ترشد أحدًا، أو تسترعي الانتباه.

أسمعُ من خلفي تسلل متطفلين، وباعةً، وهواة التقاط أيّ شيءٍ يخرج إلى الشط، وحين ازدحم المكان غادرته إلى مقهاي.

كنتُ أوّلَ الواصلين. لم تستيقظ بعد رائحة القهوة، والنارجيلة، والفحم، والعطور. ينعكس على المرآة المستقرة آخر المقهى وجهُ كان ينظر إليَّ شاحبَ اللون، مرهقَ الملامح، وهالات سود تحت العينين تشي بحزن وبكاء.

من خلف وجه المرآة التي تبادلني النظرات ستائر عاجية، تسرّب غلالة شفيفة من ضوء الصبح، تغمر ديكور المقهى. تتناثر متباعدة طاولات خشبية تزيدها سلاسل الشمس فخامة وتناسقًا، يحيطها مقاعد كلاسيكية رمادية. الأرض مغطاة بقشرة باركية، ويستقر في الزوايا ركنيات إضاءة لطيفة، ويحتل صدر المقهى

قوس رصت فوقه أكواب مختلفة، علب قهوة بكامل أدواتها الشبيهة بالأنتيكات.

أحضر النادل شلع وردة روز طويلًا، ومنفضة سجائر، ثم عاد ووضع فنجان قهوتي، وكأس ماء. كانت أضواء السقف تتراقص على وجه الكوبين كنجمات تهوي..

كلا الوجهين يشفُّ عن مشهدٍ واحدٍ ومتناقضٍ في الوقت ذاته!.

وحين استقرت المصابيح، وسكنت على وجه الكوبين، عبرهما ظل رأسي غارقًا في سواد القهوة، وصفاء كأس الماء، يبدو أن الأيام كالأقداح، إمّا سوداء قاتمة، وإما بيضاء ناصعة!

- 4 -

في طريق العودة إلى المنزل توقفتُ عند بائع الورد، أخبرته بأمري. . فوجىء، وأبدى حزنه، ثم طلبتُ منه أن لا يتوقف عن إرسال باقات الورد التي كانت تزيّن بيتي. دفعتُ له المبلغ الشهري، مضيتُ وكلمات مواساته تترددُ داخلي.

حين وصلتُ إلى المنزل، لمحتُ أطفالًا يجلسون قرب البناية. كانت جارتي البصارة تجلس كعادتها متكلسةً أمام بيتها، وقد حاولت تخفيف تعابير وجهها بابتسامة صغيرة، وتحية صباحية حانية. شعرتُ أن تلك الملامح الصارمة التي تستشرف القدر قد تلاشت، واستبدلت بها ملامح أكثر هدوءًا، وأكثر لطافةً.

توجّهت الجارةُ إلى مطبخي. . وبقيت أذرع الصالة، ويداي خلف ظهري. كانت رائحة زهر تتأرج من باقة ملوّنة قد تفتحت أكمامُهَا، أغصانُها المتطاولة تنبتُ من فوّهة مزهرية أنيقة، وترتعش بتلاتها تحت سلاسل الشمس، تتوهج ملونة زاهية، وقد تمدد أسفل المنضدة ظلالها الدائرية.

سارة.. ما سرُّ افتتانكِ بالزهور؟! تضعينهَا في آنية خزفية فاخرة. ولكن هذا الإناء الأخير هو الأجمل والأنقى لونًا وتصميمًا. من زجاج فيروزي كرحم أنثى منتفخ، إنه الإناء الماثل في إيوانك، الشاهد على غيابك، الحاضر لفناء مملكتك، الباقي من أثرك.

ها هي الباقة التي صففتِها بيدكِ تشذو عبيرًا يمزّق وحدة الإناء ووحدتي. لربما هي تلفظ زفرات افتقادكِ. تحسست أغصانها، كانت باردة رطبة، وبتلاتها ناعمة، ومياسيمها منتشية تنتظر فرح الربيع. على الرغم من أن ماء الحياة لا يزال يسري بين سيقانها، إلاّ أنه سيستبدل بها في الغد باقةً لم تشاهديهَا، ولن ترعيها.. سترحل باقتكِ كما رحلتِ، ويبقى إناؤك رحمًا خزفية جوفاء، كقبرٍ خالٍ يقبعُ في ركن الصالة.

كنتِ تنهضين من فراشكِ عجلة إلى الباقة، حين تقبلين عليها ترفعين حاجبيكِ، وتشهقين شهقة الفرح، إذ رأيتِ وردةً تبتسمُ لنسمات الصبح. تطيرين إليها كفراشة، تستنشقينها في انتشاء، وكأنّ رائحتها تعيدك إلى الحياة، ثم تلمسينها برفق تلك التي تفتحت، وتتأمّلينها بقية صباحكِ، ببساطة.. كلّ هذا لأنّكِ تؤمنين أنّها كالقلوبِ تنبض بالإحساس.

ثم تعرّين كاميرتكِ من جرابها، تلتقطين صورة للتي فرّجت عن بتلاتها.

لقطة من هذه الزاوية، وتلك الناحية، وقد تهوين مستلقية على الأرض تحملقين فيها، أو تصعدين فوق كرسي فتبعث كاميرتكِ ومضاتٍ كبرق متلاحق.

تستملككِ حالة وجد صوفيّ مع النباتات التي تعرّي مياسمها للريح هاتفة هيتَ لكِ.. هيتَ لكِ.

كنتِ ترددين للحبِّ وردة، وللغيرة زهرة.. للوفاء وردة، وللحنين زهرة.. للحظات الدافئة وردة، وللحبور زهرة.. ولكن يا سارة أيّ الورود للغياب؟

لو كانت الأشجار بإمكانها البوح مثلما يتأرج الزهر عن إحساسه، فأي الأشجار أعمق نشيجًا وبوحًا؟!

ماذا عن حفيف سعف النخل، وآهات إبر الصبّار؟ هل هي تشعر مثلنا.. أم نحن الذين نسبغ على النباتات ما يصطخب داخلنا؟!

رائحة باقة سارة امتزجت مع رائحة قهوة تنبعث من فنجانين قد أعدتهما الجارة البصارة. كنا فنجانين مترعين، لهما وجهان أسودان. يتصاعد منهما خيطان شفيفان، في تلوٍّ كأفعى من بخار. تجلس أمامي البصارة، وجهها صامت، وعيناها واسعتان كعيني بوم، وقد تلاشت عنها ستارتها الدمعية الحمراء. أنظر إلى

انعكاس بؤرة الضوء الذي تطبعه النافذة على مقلتيها الواسعة، وفنجانها يرتفع وينخفض، ترتشفه بتلذذٍ بالغٍ. .

قطع الصمت كلمات محشرجة. .

ـ تذكرتِ سارة حين قابلتكِ لأوّلِ مرة؟ كنتِ أوّلَ زائرةٍ لمنزلنا، بل أنت عرابتها وقارئة فنجانها. أتذكر ذلك اليوم استقبلتني سارة على الباب مبتهجة، وقالت: هذا النهار أصبح لي جارة! قالتها ببراءة مفرطة.

لا تستغربي براءتها الطفولية، نعم كانت سارة يرقة أنثوية تغفو داخل شرنقتها، مطمئنة إلى سباتها الحالم. إذ لم تسقطها الريح. وأمّا حين نزعت عنها لفافاتها، وأغشيتها، واستبدلت بيرقتها بيتًا زوجيًّاصغيرًا. فإنّها بهذا قد اكتمل تفتّحها، وغدت ملكة اعتلت عرشها. . تُدخل مَن تشاء إلى مملكتها، وتنفي عنها مَن تشاء. . أنثى استحكمتها آمال الملكات المعتليات بيت الزوجية.

إلّا أن مملكتها هي التي تلاشت، وبقيت أنا مومياء من أثرها! أليس هاجس الغد هو التابوت الذي يحمل رفات أحلامنا؟!

- 5 -

لماذا نحرث القدر في أرض فنجان متجلط بالسواد؟! نستسقي الغيب من سحائب تدفقها فوهته! ونستنبت براعم العمر من بين ملامح وجه القهوة الداكن، نستجلب الأمل، ونحلب الغد!

اقتحمت وجه البصارة أنبشُ تقاسيمه الوحشية، علّني أعثر على دلالة أسترشد بها، أو إشارة ذات معنى، قد تكون ومضة ساطعة فيها بشير أو نذير.

كانت تقرأ فنجاني المرتعش بيدها المتعرّقة، يطفح من وجهها ملامح مبهمة غريبة لم أرها قط! تنكفئ عليه كأنّها تطل إلى فوهة بئر وافر الظلام، معقودة الحاجبين، مجدولة الجبين، تجلدني لحظات ترقب مختبئة خلف ذيول الستائر، وجنبات الصالة، والصمت المقيم بين شفتي البصارة. تتخشب أطرافي، يتعرّق جبيني، ترتعش أناملي، يتضخم في أذني وجيب نبضي قارعًا طبول الخطر. عيناي تنتظران فم البصارة

أن يتحرك وينطق الحكم.. حيث سيدمغ الغد المنزوح من جب فنجاني. ما زالت الجارة مطرقة الرأس، تنظر إلى قاع فنجاني، وقد مال جذعها على الطاولة التي بيننا، ثم ببطء رفعت رأسها، وأشهرت عينيها الكبيرتين اللتين تملؤهما الدهشة والغضب.!

ـ (لماذا سحبت فنجانك من يدي؟!)

ـ عذرًا.. ربما من الأفضل ألاَّ أكرر ما فعلته سارة من قبل. تمامًا كما حدث لفنجانها. كان هذا في أول فنجان ترشفه معك.. قد طلبت منك هذا عابثة، على عجل ارتشفت سارة ما تبقى منه، ثم دفعته إليك وهي تبتسم لترى هل سأفارقها أم لا؟ بالفعل كانت أشجع مني.. ناولتك فنجانها والمرح يحملها بعيدًا.. بعيدًا فوق سماء القادم من عمرها. والغريب أنكِ اليوم تشهدين جفاف فنجانها، وارتواء فنجاني. انظري ها هو فنجانها الأنيق قابع على رف مطبخها، أبيضَ نظيفًا ينتظر أن تسكب القهوة لمرتشفٍ مجهول غافلٍ يتجرّع عمره وقدره.

ولكن أيّ مذاق سيستطعم؟ وأيّ لذة ستسري بين عروقه؟ أيّ نكهة ستبقى عالقة بفمه؟ وأيّ رائحة سيزفرها عقب انتهائه وتركه لفنجانه الساخن؟!

لا تزعمي أنك بصارة مفرغة من الشعور، قد يصعب عليكِ أن تقفي على الحياد بين فنجانين، أحدهما استقر داخل جوف أنثى قُبرت، والآخر لايزال يدلق في أعماق رجل يقيم مأتمًا لها.

جارتي.. ربما لن تصدقيني! كنتُ إذا زرتِنَا أرى في عينيكِ شيئًا غامضًا، خصوصًا حين تنظرين إلى الصور المعلّقة التي تزيّن الأركان.. تفضحك عيناك، تبقى شاخصة في وجه سارة المتبسمة داخل الصورة.

آه.. اليوم في هذا النهار استطعتُ كشف طلاسم عينيكِ، ولكن ـ للأسف ـ متأخرًا جدًّا. كم هو مخطئ صاحب المقولة: «أنْ تأتِيَ متأخّرًا خيرٌ مِن أنْ لاِ تَأتِي»!

- 6 -

سأخبركِ تفاصيل عن سارة، عجزت قدراتكِ الروحية أن تغوصَ في فنجانها، فتقرأه، وتكشف ستره.

سأحدّثكِ عما يصطخبُ تحت السطح. . أليسَ ظاهر اليمِّ لا ينبئُ بما غيّبه قاعُه؟ وأنّ قسمات الوجوه قد تعجزُ عن البوح مهما كانت الروح بالداخل تضجُّ وتصطخبُ؟ وكل ما نمتلكه من قدرة على التنبؤ، والفراسة لا تزيدنا إلا حيرة، وتيهًا، إلّا أننا لا نملكُ سوى المضي عبر طريق الغيب المجهول!

إلى ليلة بعينها، لتلك الشموع التي كانت تقف فوق منضدة تشبه هذه المطروح فوقها فنجاني وفنجانكِ. ينثالُ في المكان نغمٌ خفيضٌ، وترفرف رائحة لطيفة، تزدان المنضدة التي تتوسطنا بمفرش دائري، وكأسي كريستال، وشمعدان متشعب الأفنان، خلا من الشموع إلّا شمعة بيضاء طويلة، تتراقص دمعتها المضيئة. يتموّج معها وجه سارة، وابتسامة لم تعرف الحزن، ولا تستنبت سوى الحلم. . نعم الحلم.

هي ليلة الاحتفال بعيد زواجنا الثاني. . كانت شفتاها تغزلان حلمها. بيت أكبر، وحديقة في زاويتها، مقعد خشبي، وأرجوحة، صالة لها نافذة عريضة، وأصاصي نباتات بأوراق متنوعة الأشكال، ثم بضع سنبلات غضة تقتعد حولنا، ثمرة تعانق الحياة بالحياة.

ـ في حجرة النوم سنضع سريرًا هزازًا لملكين يحفاننا.

وعبرت تلك السنة الثانية، والأماني تتضخم وتتضخم يومًا تلو يومٍ. . خلال هذا العام فجأة غيّرت كل قناعاتهَا في تأخيرِ الإنجاب. . متخلّية عن الهدوء الذي تستمتع به.

من قبل لم يشغلها هذا الموضوع، ولم تلقِ له بالًا؛ لإيمانها العميق أن الوقت لايزال مبكرًا.

في ليلة الشمعة الثانية طيّرت فراشات الأماني تحلّق في عتمة المكان الناعس بضوء الشموع. فقد أبرقت، وأرعدت غيمات أحلامها فوق حقولي المتلهفة للبذر. . حدثتها عن كيف كانت النساء يعشن قبل ابتكار حبوب منع الحمل السحرية. والوجل يؤرجح قلوبهنّ من أن ينمو فجأة بذرة لم يحسب زارعها حسابها! قبل هذا الابتكار المدهش كانت الأزياء طويلة، فائضة عن

حاجتها، تحجب كل ما يبعث همّة الاستسقاء والارتواء.. بعدما طرق الباب النصف الثاني من القرن العشرين، حاملًا في حقيبته أقراص منع البذور الصغيرة.. تسللت بين عروق الأنثى هبّة الطمأنينة أن لا حصاد هذا العام، وتوقفت ساقية الحذر عن الدوران.

فورًا قامت سارة إلى صيدلية المنزل، وقذفت بعلبة الحبوب، واندفعت كمطر هادر.. تبًّا لكلِّ نظريات تنظيم الأسرة.. في هذا العام ظلّت وفية العهد لما عزمت عليه، فتوقفت تمامًا عن الحبوب، وأصبحت تسارع، تهاتف أمّها كلّما أحسّت بوخزات أسفلِ بطنها، أو اضطراب معدتها، أو خمولٍ، ونومٍ، وكسلٍ!

أمّها كانت تستمع لها مصعدةً إلى السماء سلالم الدعاء، ساكبةً نصائح العجائز بما يخص الفتيات اللاتي يتخطين سنوات زواجهن الأولى.

في هذا العام استشعرت سارة حجم العلاقة التي تربطها بالدم.

الدمُ عنوانُ الأنثى، والأحمر لونها الأكثر طغيانًا، وإثارةً، ولهيبًا، واحتراقًا. الأحمر القاني لون الغروب، وهمس المساء. الأظافر المطلية، وتسلل عنفوان

الاشتعال من تحتها. الشفاه المحترقة العطشى إلى الانطفاء، الشعر الغجريُّ المثير لجنون الرغبة، لون الحياء المتورّد فوق هضاب الأنثى، نبيذُ المشاعر، والفخامة المعتّقة، لون الرعب، اللحم المكشوط، والعروق المتورّمة، القلب، وأحضانُ الرحم التي تهدهد الحياة. إنّه اكتمالُ نضج الأنثى، واشتعال رقّتها، واستواء ثمرتها. إنّه الضيف الشهري المتدفق.

سارة لم تستشعر عمق الارتباط المقدس بالدم قبل زواجنا. سربت لي أنها لم تبالِ إن ابتلعته أرضها، وغيّض لأشهر، أم فجّرته ينابيعها حممًا حمراء تجتاحها. لا تكترث أهطل مطرها الأحمر، أم تأخر، وطال الجفاف؟ أكان سيلًا مهدارًا أم بقع بلل مكدرة؟ والآنَ في عامها الثاني تعلّمت نصب الفخاخ لطمثها.. علّها تغري مقدمه المهيب.

تلتهم مساحيق نباتات ترسلها إليها أمّها، أو تكمن لدمها خلف الليالي؛ لتتحول إلى قنبلة موقوتة تُتكتك ساعتها العشوائية انتظارًا للحظة الانفجار الأحمر. وإن لم يتدفق دمها تذرع الصالة، تغدو وتروح كبندول ساعة يتأرجح أرقًا، لن يستريح حتى يصل العقرب الأطول إلى غايته، قارعًا الثانية عشرة انتظارًا،

معلنًا وفاة يوم جاف، وميلاد آخر ديمته الحمرة.

قد يحدث مرارًا أن تفشل كل حيلها، فتبقى كامنة له ربما يحل أوانه، تدلك بطنها، تستجديه لعلّ رحمها تنبجس عن بقع مترعة بالأماني.. إنها أنثى طال بها المسير، ونأت عنها نخلتها التي تهزها لتساقط عليها ثمر أنوثتها الداكن.

وقد يمر شهران، أو ثلاثة من الانتظار ولا يأتي، فينقلب انتظارها وترقبها صخبًا، ولعنات ترسلها شفتاها المرسومتان غضبًا. يرتدي وجهها قناع الضجر. تغيب عنه بسماته، ويرتفع صوتها المخملي الدافئ. يرشق غياب الحمرة ذقنها وخدّيها وجبينها الأبيض، حبوب حمر تنز متورمة انتظارًا وقحًا.

تنقطع شهيتها، وتبقى نهارها كلّه على رمق الماء الصافي، لعلّه يستحيل دمًا، فإذا انبثقت حمم بركانها، هدأت وعادت طبيعة نفسها إلى نفسها، ورجع صوتها الناعم بأنّات متقطعة واهنة، وتتلمظ شفتاها ألواح الشوكولا السوداء، وتشتهي صنوفًا من الطعام لا تفضلها عادة.

.

كانت لا تكفُّ عن ثرثرة كلّ ما تقذفه رحمها، تارة تخرج عليَّ مرعوبة بوجه مخطوف، وحاجبين

مرتفعين لمَا رأت من كتل متجلّطة، أو نزر من مطر لا ينبت الطمأنينة. .

تارة تقول انتهى سريعًا، وتارة تقول هذه المرة تجاوزت عدد أيامها المعدودة. . لكنها لا يتسلل إليها الغضب والضجر طالما لايزال بركانها الأنثوي ناشطًا مستعرًا.

وطقوس الدم هذه، واستشعارها عظمته ومهابته، دفعها أن تقتني كراسًا فاخرًا، ذا دفتين جلديتين، يكسوه لون دم الغزال الصارخ. . تدوّن فيه تاريخ اليوم الذي طمثت به والساعة. . لو شاهدتها لأبصرت يمامات بهجتها ترفرف؛لأنّها ستدوّن طقوس الدم بكل انخطاف. . ليلتان تنزف نزفًا متلذذة بحضوره، ثم يتلوهما ليلتان أقل ألمًا، وبعدها ليلة تتفحص رحيقها أعاد إلى نقائه، وقد تسلل عنه الأحمر المفرح الموجع، ثم تدع طقوس الدم خلفها، وتروح تنتظر أمرًا آخرَ!.

إنه الوجه الثاني للعملة الأنثوية. .

فتؤرّخ في كراسها الجلدي مسيرة تخلّق بيضتها. وحين يكتمل نضجها، وتصل إلى مأربها تبيت مستلقية على ظهرها، رافعة جذعها السفلي بمخدة تدسها تحتها. ظانّة أن بذور الحياة ستتساقط من بين فخذيها

إذ مشت أو اضطجعت. كانت هشة كالأرض التي فرغ حرثها توًّا، وقد تعرّت تربتها للشمس والرياح.. وديعة رقيقة كزهرة مبتسمة البتلات للهواء، لعلّه يذرو داخلها لقاحَ زينة الحياة وفتنتها.

أمضت عامها الثاني تطارد بيضةً تتسلل باستحياء، إثر طقوس المطر، أو دم شحيح بخيل.

يا جارة.. قد تحوّلت أيامنا إلى رحى تطحن قمحَ الانتظار!

- 7 -

نهضت البصارة مخلّفة وراءها رائحة التبغ الذي دوّخ رؤوسنا، مع مذاقات القهوة المترسبة في فمي.. سجائري بُنيّة الأعقاب، مهروسة من المنتصف، وسجائرها البيض معقوفة الأطراف، مهملة داخل المنفضة.

تطل السماء الملبدة بالغيم من النافذة، وقد تسللت باستحياء ظلال أغصان شجرة معمّرة، ويد الهواء تهزها فتماوج أذرع الظل على أصاصي رُصّت قرب النافذة الواسعة.

أكاد ألمح طيف طفل، أو ما يشبه ظل رأس طفل يسقط على أرضية الصالة، كأنّي لا أنكره.. كان ظله قريبًا من باقة سارة، يحف بها عن يمينها وشمالها غرستا صبّار ذواتا أشواك مدببة، ومتورمة الورق.

غريبٌ أمركِ يا سارة! لماذا وضعتِ هذه الباقة هنا؟!

وردٌ غضٌّ حاصره صبّارتان.!

أكنت تتلذذين بهذا المنظر؟ لربما أردتِ أن تعبّري عن نفسك. بل إني أظن أنك حين وضعتها كنت تقصدينني. هاأنا وحيد بين ذراعي صبّار كهذه الباقة.. رهين الماضي، مقيد بأغلال علاقتنا ورباطنا الذي يشدني إليكِ حاضرةً وغائبةً.

آآآه.. انتشلني من دوامتي قدوم الجارة المباغت.. تحمل طبقًا تناولناه صامتين.. لا أسمع سوى صوت مضغها، وعظمة فكها السفلي البارز تتحرّك حركة رتيبة وبطيئة.. لا زالت ترتدي القميص الأسود نفسه، وتلف شعرها بمنديل أسود.. منذ متى اتخذت هذا الزي؟!

لا أتذكّرُ أنّي شاهدتها ترتدي قميصًا ملوّنًا، بل ولا حتّى تضعُ منديلًا غيرَ الأسود هذا!

يا ترى.. هل خرجت إلى الدنيا وهي على هذه الحالة؟ لربما مهدت حين كانت رضيعة بالسواد! مَن يدري؟!

يُهيأ لي أنّ لون جسدها كله أسود، ما عدا وجهها وكفّيها. بودّي لو أسألها: هل كتبتْ في وصيتِها أنّها تُكفّن بالسواد؟!

بصارة تكتم من حياتها أكثر ممّا تثرثر عن الفناجين. . بيتها الصغير حين تقبل إليه يتسلل داخلك شعور بأنّه خالٍ ومهجورٌ! طلاؤه القاتم مقشر. . نوافذه خشبيةٌ عتيقةٌ متنفخةُ الأطراف، لها أربعُ ذرف ذات شرائح أفقية، تدخل الضوء اليسير والصوت، وتحجب الرؤية. بيتها الصغير خالٍ من الشرفات. عند زاويته شجرةٌ معمّرةٌ ذات أغصانٍ متشابكة دومًا، يحوم فوقها سربُ غربان سود. لم تدعنا له قط، ولم أشاهد أحدًا يخرج منه سواها كل صباح.

نوافذه تظل كل ليلة معتمة إلَّا من نافذة «تنوّس» ضوءًا شحيحًا بخيلًا!

يرعبني صمتها المريب، ومزاجها المتقلّب المعتكر، لكنها رغم هذا تنصت جيدًا، وبعمق لمَن يحدّثها.

تراها حين تقبل جادّةَ الملامح، صارمة الوجه وما أن يُقدّم لها فنجان قهوة حتى تبقى ساهمة، متأملة العينين، مطرقة الرأس، قد يطول صمتها لدقائق، تشعرُ أنّها عمرٌ. ثم بعدها تعود من حالة الانخطاف والغياب شيئًا. . فشيئًا.

لستُ أعلم. . هل الذي يجعلها على تلك الحالة

المزاجية هو الفنجان، أم مسحوق القهوة المحروقة كأعمارنا؟!

لربما يعود السبب إلى كونهما يجمعان بين الزمان والمكان. التجويف الفارغ لا يدل إلّا على الفراغ، واغتنام الزمن في سكب سائل القهوة المغلية قبل أن تبرد.. هو محاولة لاصطياد الزمان، وحشره في مكان دائري ضيّق.. فنحن لم نشاهد، أو حتى سمعنا بأن بصارة منهمكة، وهي مقعية إلى الأرضِ تقرأُ خطوطَ قهوةٍ مسفوحةٍ فوقَ قارعةِ طريق! أو أنّها تطلُّ بعينيها في قعر ركوة قهوة مهملة على رفّ مطبخ قذر.

إنها ثنائية الفنجان الخزفي الأبيض، ووجه قهوة داكن السواد.. بياض الحلم، وسواد الواقع، سائل الأقدار، وخزفية الروح، ونبقى نحن في تجاذب مستمر لكل منها يرحل بنا بعيدًا إلى ناحيته، وما نكاد ننحاز حتى يجذبنا الآخر إليه، غير أنّي الآن إلى أي جهة أنتمي؟!

هل أنا أحلّق في بياض الحلم كملك، حيث إني تحررتُ من ماضيَّ. أم أنا في سواد الواقع مقبل عليه بأردية سوداء، كراهبٍ يدثره حزنٌ، وألمٌ، وسكينةٌ؟!

أو ربما جف سائل القدر وتوقفَ منتهاه، لا غد آمله، ولا أمانيّ أرجوها.

إنني قدحٌ خزفيٌّ مهشمٌ فوق قارعة الطريق، وشظايا ترحل إلى كل زاوية، تدوسها الليالي الثقيلة.. يلسعه زفرات نهاراتي الطويلة، ويد القدح بقوسها اللامع تضطجع هناك.. بعيدًا عن قاعدته الرابضة عند النقطة التي ارتطم بها.. ناشرًا نثارات حادة تدمي وجه الأرض.

من يعيد ترميمي! أو سحقي، ثم عجني من جديد؛ ليستنسخني قدحًا بكرًا ينتظر سكب أقداره؟

- 8 -

عبرنا ردحًا من زمن ثقيل، كانت سارة تنصب الفخاخ لدمها علّه ينزف أو يجفّ. بقيت هكذا أعوامًا، وعلى رأس كل سنة جديدة نشعل شمعة يفيض نورها على السراب الأحمر. كل خطواتها المتسارعة عجزت أن تقبض عليه بانتظام، كلما تقدمت الشهور كان المدى الأحمر يمتد أمامها شاسعًا كالصحراء الجائعة، لا تكفّ عن التهام أثر المسير. أصبحت نهاراتها فيافيَ لا يدوم احتفاؤها بخطاها الطازجة.

إنّها تشبه سنامًا منتفخًا يتهادَى، وهو العاجز أن يروي ذاتَهُ من ذاتِهِ، ما زالت تراوح في مكانها المقيم بين وصفات الأم، ونصائح العجائز. ذات مساء استغللتُ توهج شمعة واقفة كحارس، وهمستُ إليها أن تتركَ تلك الوصفات الشعبية، وتتجه إلى الطبّ الحديث!

وما أن انتهيتُ من دلق اقتراحي حتى ابتلع الصمت المسافة بيننا، وبرزت مخالب الترقب تنهش وجهينا!

شرسة عنيفة تنبش المكنون الذي كدّسته أرق الليالي الطويلة.. مخالب تدمي وجهين لم يعرفا سوى الابتسام، ينبجس منها حرقة الحيرة، وتنزّ قسماتها الوجع الحارق.. إنّ الوجعَ فجٌّ لا ينتظر أمام أبوابنا حتى نأذن له.. هو قاطع طريق، عربيد يقتحمنا غير مكترث لنا.

احمرّتْ أحداقُ سارة، وانتفخت أوداجها.. رأيت نبضها المحموم يتسلّق رقبتها، ويستعمر وجهها الأبيض.. والصمت جاثم، وأنفاسنا تقرع طبول الترقّب، أنامله الطويلة ذات الأظفار تعبث بوتر أرواحنا.

- لماذا تأمرني أن أتوقف عن وصفات أمي؟ ببساطة لأنّكَ رجلٌ لا تحسن غير الأوامر، وتنزّه نفسكَ! لا.. لا.. لن أذهبَ.. اسمعْ إنّي امرأةٌ طبيعية كسائر المتزوجات.. ألست الذي يشتري من نقوده فوطي الصحية؟! ألمْ تشاهد بعينيكَ المتشككتين دمي؟! لماذَا لا تذهب أنتَ؟ بل أشكُّ في قدرتكَ! هات لي برهانًا ينقضُ شكّي فيكَ! ما تريد منّي بعد هذا كله، وقد أثبتُّ لكَ أنّي أنثى تطمثُ، ولكنَّ الباقي عليكَ؟! يا أنتَ إلى متَى يستمرُّ هذا الصمتُ المريبُ الذي أشعر

به في عينيكَ. تطالبني بالمزيدِ، وتمزقني بشكّكَ! توقّف.. لن أجعلكَ تتمادَى في هذه اللعبة.. أنتَ الآنَ يجبُ عليكَ الإثباتَ.. ليس أنا يا رجل!

دلقتُ كل هذا، ثم زفرتُ في وجه الشمعة، وغادرتُ الصالة. خيّم الظلام حولي، وانطفأت ارتعاشات الشمعة التي كانت تمزّق حجب العتمة.. تحاصرني ظلمة المكان، وقرع خطواتها اللائذة بغرفتها.. أحقًا أنا مشكوكٌ فيه؟! ورجولتي على المحك؟

لم أكنْ أتخيّل ذاتَ يوم أنه عليَّ أن أثبتَ رجولتي.. هذا شاربي كثٌّ، وهذا شعري من حول أذني، وصلعتي اللامعة، وهذا صوتي الأجش، وهذا جسدي الذي يتفجّر رجولةً وقوةً.. إذًا أين المشكلة؟! فهذان الجسدان يطمثان أنوثةً، ويدفقان رجولةً.!

يا سارة.. غارتكِ لم تصل إلى أهدافهَا. وغدًا عند الصبح سيزحف الجيشان نحو المستشفى، هناك جبهتنا الحقيقية.. فيها سيعرف كلٌّ منا نفسه المغرور بها، سنعرف حين ينقشع غبارها مَن المنتصر؟ غدًا سنذهب معًا إلى الطبيب، وأكشف على رجولتي، وأتأكد من أنوثتكِ التي تباهينني بها. عند الصبح سنلجُ

حقًا لا يعرف تكهنات العجائز. عند الصبح سنكون في حضرة العلم، وفي مختبره الصارم.. لكن لو صدقت في اتهامها لي.. مجرد التفكير نشر الرعب فيَّ، وزلزل أركاني.

- 9 -

اتخذنا قرارنا في لحظة غير متوقعة، ولم نخطط لها.. بتنا ليلتنا تلك بأعين مفتوحة، تجول بين طرقات المجهول، تحاول أن تهتدي إلى طريق قد يسلمنا إلى واحة الطمأنينة. عندما حل الصبح، ودقت الساعة معلنة انتهاء الأرق، وابتداء الترقب نظر كلٌّ منّا إلى وجه رفيقه، وقد كدّته الحيرة والسهر، لم نعلّق، إنما اكتفينا بما أثقل رؤوسنا وأفئدتنا.

ارتدينا ملابسنا في صمتٍ، ثم غادرنا المنزل على عجلٍ، عبرنا الشوارع الصاخبة، إلّا من سيارتنا، دخلنا بوابةَ المستشفى، دفعتُ قيمة الكشف، ثم انتظرنا مع المقاعد الخالية بصمت.. لم تتحرك شفاهنا، ولم تسرب حناجرنا كلمة واحدة. أنظرُ إليها وهي تتصنّع الاشتغال، ثم تسرق النظرات إليَّ وأفتعلُ اللامبالاة.

وحيدان داخل حجرة باردة، كلٌّ ما فيها يستنسخ دقائق الانتظار البليدة.. متّهمان ينتظران القاضي والجلاد، مكثنا ينظر كلانا خلسة إلى الآخر؛ حتى قدّ

رداءَ الصمتِ نداءٌ حادٌّ يركضُ بين الممر، يجلد أمامه اسمي واسمها.

دخلنا غرفة ضيّقة، المكتب صغير، حشر خلفه طبيبة بدينة، عريضة الكتفين، ضخمة الرأس، جثتها قد أخفت معالم الكرسي الذي تجلس عليه.. ما أن تراها يتبادر إلى ذهنك سؤال: كيف حشرت هذه الطبيبة خلف هذا المكتب، في هذه الغرفة الضيّقة؟

ـ خير إنشاء الله؟

ـ صوّبتُ نظري إلى وجه الدكتورة، نريد الكشفَ عن حالة زوجتي، ونطمئن إلى مسألة الإنجاب.

ـ بمجرد أن ألقيت هذه الجملة، شعرت أني أرفع صخرة كبيرة مربوطة بطرف لساني، لا أدري كيف دفعتها إلى الهاوية، رأيتها أمامي تهبط مدوّية متشظية..

شاهدت في وجه سارة انعكاس انفعالي.. كان وجهها مرآة أنثوية نقية، رأيت في مقلتيها انكسار عيني، وفي شفتيها تيبس شفتي.

نهضت سارة إلى سرير الكشف.. كان صوت الطبيبة يصلني من خلف الستار: هذه هي رحمكِ يا مدام.. وهذا هو المبيض اليمين.. الصورة مغبشة.

آه. . وهذا هو المبيض الشمال. . كل تلك التفاصيل المختبئة كنت أجهلها! لم أعرفها قط إلّا في كتب العلوم المدرسية، تمنيت أن أقتحم تلك الزاوية من الحجرة، بدل أن يتقافز نظري بين المقعدين الخاليين. ثم بكلٍّ برودٍ ولا مبالاةٍ قذفت إليَّ سؤالًا من خلف الستارة:

ـ أستاذ. . لا بدَّ أن تجري فحوصات.

وصلت إلى مكتبها، واختفى كرسيها عن نظري. . بقيتُ حائرًا صامتًا، وصوت أناملها الضخمة تخربش وصفة ثم دفعتها إليَّ. انبعث صوتها حادًّا كسكين.

ـ أجرِ هذه التحاليل لكَ، أريدُ أن أعرف كم عدد الحيوانات المنوية؟ سرعتها، ومدى التشوّه فيها، وإذا انتهيت زوراني وسأخبركما بكلّ شيء.

ـ يا دكتورة. . ماذا عن فحوصات سارة؟! كيف؟

ـ أستاذ لا أستطيع قول شيء حتى تكتمل كل التحاليل.

صوّبت عينا سارة نظرة متشككة، وتخلل نبرات صوتها المرتجفة سؤال يتوسل: هل ستجري التحليل؟

بقيتُ صامتًا لم أجب، غير أن اتجاه خطواتي إلى الكاشير أجابتها. مضينا والشكُّ لم يتلاشَ. ولم يبدده توقعاتنا البارحة بأن زيارة خاطفة للطبيب قادرة على فصل الأمر بيننا، ومعرفة كل منا بجسده الذي يحمله منذ ولادته.

جارتي غريب هذا الجسد تقادمه يكشف حجم ضعفنا، وتفاعله مع الأيام يمنحنا فرصة اقتحام زاوية يكمن فيها الوجع، لم نعرفها قبل.!

وبدورانه عبر عجلة العمر نستبصر داخله كوامن لم يخطر على بالنا أنها تسكننا.!

عند لحظة من عمر نسائل ذواتنا، ونشك فيها، فنصل إلى نتيجة أننا نحتفي بغرورنا الهش!

أجسادنا لا تفعل شيئًا، كل ما هنالك أنّها منذ تخرج من بطون الأمهات جسدًا غضًا ناعمًا تحتفي بك الأكف، ولفافات المهاد القطنية. وما هي إلّا ومضة من زمن حتى يكبر الجسد، ويشتد عوده، فتأخذ تلك اللفافات شكل أعضائه، تحيطها باستحكام الساقين، الفخذين، قميص للصدر، حزام للخصر، كم للساعد، وياقة للعنق.. وما هي إلى نفثة أخرى من زمن حتى

يعود كل شيء إلى مكانه، لتلفنا شرنقتنا البيضاء. يتيبس ذاك الجسد الغض ببطن الأرض، وكل ما كسبه عبر هذه الحياة هو مساحة أكبر من القماش الأبيض، آيبين إلى رحم رملية أوسع من الرحم البشرية.

رفعت الجارة يدها عن الطاولة، ثم تفقّدت السواد الذي يحيط بوجهها؛ حتى لا يكشف شيء من شعرها الذي لا أعلم لونه، لربما اشتعل الشيب فيه، أو أنها تصبغه بشيء من الحمرة!

أومأت لي أن أتابع.

بعدما سحبت الممرضة عينة دم من سارة، وأخبرتها بأن النتيجة تظهر غدًا. قامت وناولتني قنينة بلاستيكية لها غطاء محكم.

- هات عينة السائل المنوي.

قالتها بكل برودٍ، وبصوتٍ عارٍ مكشوفٍ، ثم انصرفت إلى المريض الآخر تستلم منه قنينته. بسرعة أخفيتها في جيبي والخجل يحاصرني.. شعرتُ أن الكل قد تحوّل إلى أعين تنظر إلى هذا الرجل المشكوك فيه.

غير أن انتظام الرجال أمام الحمام خفّف من

وطأة شعوري بالحرج. كانت مرايا الحمامات تستنسخ الرجال! أحدهم مرتبك يخبئ قنينته داخل جيبه المنتفخ، آخر كان قلقًا يدسها خلف ظهره. . أو من يلعب بها بين يديه يقذفها حتى مستوى رأسه، ثم يمسكها غير مبالٍ، ولا آبهٍ. فجأة تسمع هنا أو هناك دوران مفتاح، ثم يدفع باب، وينطلق منه حصان جامح. بعضهم يخرج متهاديًا كجملٍ يجوس الأرض مزهوًا مختالًا بقوته. وبعض الخارجين يندفعون كثور الميتادور غاضبًا حانقًا متحفزًا، سينطح كلَّ مَن يعترض طريقه.

وصل دوري، ودخلت حظيرة الرجال.

كانت عفنة مكتومة، رطبة تختنق برائحة عرق، وبول، وروائح أخرى. حائط بلا نافذة، ومروحة الشفط مكسورة الريش. وصوت هدير الماء في المرحاض يبعث على الاشمئزاز. . صنبور الماء ينز خيطًا رفيعًا يشفّ بياض الحوض. أسفله سلة نفايات، ومناديل تنتثر حولها. نظرت إلى الأرض، فانعكس شبح رأسي ورقبتي فوق بقايا الماء، ثم صوّبت عيني إلى المرآة المهملة، كان وجهي يتفصد عرقًا، وعيناي تشتعلان، وشفتي متيبسة بيضاء، حدثت الملامح التي

تعكسها المرآة: أتظن أنني سأسمح لك بأن تراقبني في هذا المكان الحقير؟ ابتسم وجهي المنعكس ساخرًا، ثم أدرت له ظهري لأنجز مهمّتي، وخرجت من الحمام الخانق..

لم أندفع كحصان درب على الانطلاق، ولا كجمل واثق، ولا كثور حانق.. أمشي وكل الظنون شياطين تتقافز أمامي.

ـ 10 ـ

في صبحِ الغد كنّا نجلس متقابلين على مقعدي الانتظار، وكلٌّ منا يختلس من طرف خفيٍّ نظرة إلى وجه صاحبه، ولكأننا مرآة تعكس حجم الاضطراب، والسعير المشتعل داخلنا.. حاولنا أن نتحاشى النظر إلى الطوفان الذي يجتاح وجهينا.. كل النظرات الواثقة بذاتها، المعتدّة بنفسها، المزهوة أنوثةً، المنتفشة رجولةً أصبحت رمادًا تذروه دقائق الانتظار.. كلٌّ منا يرى داخل عيني صاحبه شبحًا يتسلل خلسة.. تمتد مخالبه ببطء لتطبق خناقها عليه. كلٌّ منا يرى في وجه صاحبه الذي يجلس أمامه كالذي تحصّن بقلعته، موصدًا بابها عليه ينتظر عدوًّا استيقن زحفه المروّع. ولا يملك سوى أن يلوذ خلف أسواره، وقد اكتشف في اللحظة الأخيرة أنّه لن يصمد إلّا بمعجزة يؤمن بقدومها.. ها هي قسمات وجهه ينحتها الانتظار، ويحرقها الترقب.. المدى المجهول يبسط أمامه شاسعًا خاليًا، وحنجرة الصمت تصرخ في الأرجاء: (الأحلام ليست كالأحلام).

ليس هنا سوى طيف يرتجف لأمنيتين يتيمتين حبيستي غرفة الانتظار.

تلاشى التحفّز، ونبتت أغصان الريبة.. نعم ريبة، لكنها رفعت مخالبها عن نهش الآخر، وانغرست حتى الداخل فينا! أصبح كل واحد منا كمقاتل جريح ولّى عنه جيشه المهزوم، متروكًا في الميدان وحيدًا بين أنين المحتضرين، ينظر إلى الخلف فيرى غبار الأيام السالفة، ثم ينظر إلى الأمام ليرى مستقبله المأسور. حرارة الضيم تفور في عروقه، أظافره تنهش جرحه علّه يطفئ سعير الانكسار.

إن اعتدادنا، وكلّ ثقتنا بأنفسنا بندقية صُوبت فوهتها نحو رؤوسنا.. لم يعد كل منا يلقي أعباء التهمة، بل أصبحنا عاجزين أن نحسن تسديد النظرات المشككة، غامت أعيننا وارتبكت، مقلها لم تعد تقوى على الدفاع عن أجسادنا.. إلّا أن ما خفف عنا، ووهب لنا جذوة الأمل التي كنا نتبادلها هو: التجلّد، كل منا يكظم بركانًا يستعر داخله قد تواطأ مع نفسه، لو كان جسدي معطوبًا فالطب لم يعجز. ألم يستنبت ساقًا بدل المبتورة؟! وركبةً بدل المكسورة؟! ويدًا بدل المعوّقة؟!. بالتأكيد إن لكل داء دواء، والطب يعرف الدواء.

ساقت الممرضة اسم سارة أمامها، فقفزنا للخلاص من فخ غرفة الانتظار.. كانت غرفة الطبيبة كما هي، ولكأن الكرة الأرضية لم تتدحرج أربعًا وعشرين ساعة كاملة.. كلّ شيء كما هو، ما عدا ملفًا أبيضَ هزيلًا يتمددُ داخله وريقات، رفعت وجهها المجعّد عن الملف، ثم أنزلت عن أرنبة أنفها نظارتها السميكة، ونطقت بالحكم.

يا أستاذ.. سأحوّلكَ إلى طبيبٍ مختصٍّ بالذكورةِ، فأنا طبيبةُ نساء وولادة.. قالتها بكل برودٍ، وبكل رتابةٍ كقاضٍ كسولٍ تعوّد النطق بالأحكامِ المفرغة من الشعور. ثم قالت أمّا أنتِ يا سارة.. فهناك بعض الهرمونات المضطربة! لكن يمكننا تنظيمها من خلال أقراص دواء، تلتزمين بها، وبإذن الله ستحملين.

- غادرنا وبيدي ورقة تحويلي إلى المجهول، وبيد سارة ورقة دوائها وبلسمها. كم هي المسافة شاسعة بين الورقتين: صفراء لي، وبيضاء لها. صفراء شاحبة من ألوان الحياة والعافية. أمّا الثانية فبيضاء لا شيء فيها.

ـ 11 ـ

أحادث الجارة البصارة، وأطياف الذكرى تقاسمني نهاري، تمنيت أن أحد المعزين يطرق بابي، فينقذني من هذا التداعي وانهيار أركاني أمامها. أعلم أنها لحظة مشتركة بيني وبينها لحظة تجلٍّ وكشف لداخلي. إنها اللحظة ذاتها التي أدركت فيها البصارة عجزها أمام فنجان سارة، وفنجاني هذا الذي تشتهي قراءته!

هذه عيناها تقول هيتَ لكَ أكملْ.

أُدرج اسمي ضمن كشف المرضى عند طبيب الذكورة، ثم صرفنا الدواء من الصيدلية، وعُدنا إلى منزلنا. وقد حقن عقلانا بشتى الفكر، وقلبانا يخفقان خفقًا غير الذي كان.. هي ألقت عن كاهلها حيرة الانتظار، وعرفت ما بها.. وأمّا أنا فقد زاد الانتظار من وطأته، وأضاف عليه ثقلَ الاتّهام.

إني رجلٌ معتدٌّ برجولته، وهذه المرآة العاكسة

لوجهي التي أحلق أمامها ذقني تؤكّد ما يطفو على السطح، غير أن جوفي يخفي هدمي، ويغلي داخلي الشك يطفح زبده معلنًا خذلاني بذاتي.

أمضينا تلك الليلة، دون أن تجرؤ سارة على مواساتي، فلو فعلت كأنها تعطف عليّ وتشفق. كيف تواسي رجلًا لاتزال رجولته تحت الاختبار، وهي الأنثى التي نجت من مقصلة الطب! نعم الطب الذي تشبثت به، ودفعتها نحوه دفعًا. كنت ساخرًا من وصفات أمّها متهكّمًا بكل خلطاتها، وها أنا اليوم أقع في الفخ.. لم أكن أعلم أن مصدر الوجع فينا تفجره خديعتنا بما نظنه يقينًا. حقًّا صدقت العرب من حيث أمنتَ فخافت. وها أنا اليوم أمنتُ للطبِّ الحديثِ، وها هو يسدد لي طعنةً في الظهر. فليس من المعقول أن هذه الطبيبة لا تعلم شيئًا عن حالتي. على الأقل التحاليل تشير إلى أمرٍ ما. لم ترد أن تتورّط في متاهات حالتي التي يبدو أنها معقّدة. فباستطاعتها إخباري أنها تشير إلى وجود خلل.. هي لم تفعل هذا، وبالتأكيد تعلم شيئًا وتخفيه.

وفي الصباح ونحن نتناول إفطارنا، رأيتُ سارة قد هيّأت نفسها للذهاب معي إلى المستشفى.. فمنعتها، كيف تذهب لعيادة الذكورة؟!

دخلت غرفة الانتظار الصامتة، خلْتُ أنْ لا

مريضَ غيري بهذا العالم! فتبعني آخر، وجلس بعيدًا، اطمأننتُ إلى وجوده، واستأنستُ به، ثم لحق بنا ثانٍ حتى صرنا خمسة رجال أشدّاء، يراكمنا الوجع داخل هذه الحجرة المشبوهة. .

كانت الساعة المعلقة تتكتك عقاربها، وكلّ منا يتابعها، وينظر إلى الوجوه القلقة. تأخر الطبيب، وددتُ أن لا يُذاع اسمي جهارًا نهارًا، ليتها لو استبدلت بأسمائنا أرقامًا مجهولةَ الهوية! لماذا هذا الفضح؟ لماذا لا يكترثُ لنا هؤلاء الأطباء، ويحترمون خصوصياتنا؟ ألم يقسموا على حفظ سر المريض؟ لكنّهم يفعلون ما لا يقسمون. . يدحرجون أسماءنا بين الممرات كبراميل فارغة مدوية دون فائدة.

سرّب البابُ أذيالَ بالطو طبيبٍ يهرول إلى غرفته، وتتبعه ممرضة تحمل ملفًا أبيضَ هزيلًا، ثم نعقت بصوتها العالي اسمي! هذه المرة كان الطبيب رجلًا رشيقًا أنيقَ المظهر، تطفر الحيوية من وجهه. . قرأ ملفي، ثم كشف عليَّ، وبعدها انبعث صوته الخدر المتراخي.

ـ اهدأ. . لا تقلق!. أتفهّم شعوركَ! يا أستاذ حالتكَ لا تستدعي كلّ هذا الفزع، صحيح التحاليل تشير إلى قلة في عدد الحيوانات المنوية، وهذا له

أسباب كثيرة، لعلّ من أهمها الإصابة بالدوالي في الخصية.. غير أنكَ لو أجريتَ العملية التي لن تطول أكثر من نصف ساعة، سيعود كل شيء إلى طبيعته. فحين تصاب الخصية بالدوالي ترتفع درجة حرارتها، والتي هي في الحالة الطبيعية أدنى من الجسم بدرجة. لذلك خلقها الله سبحانه في كيس منفصل خارج الجسد حتى تحتفظ بالحيوانات المنوية في بيئة أكثر مواءمة.. وحين تجري العملية ستعود درجة حرارتها طبيعية.

قررتُ أن لا أتراجع بعد هذا كلّه.. أأتراجع وأنا الذي دفعت نفسي داخل هذا الجب؟ أأتراجع وقد عرفت علّتي التي تنغص حياتنا؟ كلها عملية يسيرة سريعة، بعدها سينتهي كل شيء، ويصبح ماضيًا نخلّفه وراءنا، نعيد نسجه بالحكي. قررتُ تاريخ العملية، أنهيتُ الفحوصات اللازمة، وبعد أسبوع تقريبًا كنت أتوجّه برفقة سارة إلى المستشفى.

ركنتُ السيارة في المرأب، ودخلت إلى قسم التنويم، ثم إلى غرفتي، وبعدها مضى بي السرير وحدي مخلّفًا سارة تنتظر رجولتي التي سيصلح الطب عطبها!.

زال عنّي الخوف؛ لأني سأمنح الخصوبة التي

راهنت عليها كثيرًا، كذلك الطبيب قد شرح لي بالصور المعلّقة على جدار حجرته أنها عملية بسيطة لا تستحق هذا كله.

في غرفة العمليات كان يحيطني رجلان ملثّمان، وممرضات بثياب رمادية فضفاضة، ويحاصرني تتابع نغمات متقطعة، وأضواء مسلطة.

كل الذي أتذكّره أني كنتُ أعدُّ تصاعديًّا، لم أتخطَّ منتصفَ العشرة، ثم صحوتُ وأنا في حجرةٍ غير تلك التي كنتُ أعدُّ فيها، وأنظر عبر الضباب إلى بضعة وجوه غائمة، تتخافت هنا وهناك، بهذه الغرفة أشعر بوجع بين فخذيّ، أتحسسُ لأجدَ أني أرتدي سروالًا من شاشٍ، ولفافة محشورة بين فخذيّ.

مكثتُ أسبوعًا لم أغادر المنزل. حلّ وقت التحليل الذي كنت أنتظره بشوق وزهو! هذه المرة اختلف الأمر، ففي المرة الأولى كنتُ تحت الاختبار والفحص لرجولتي، وهاأنا اليوم قد حل الطب مشكلتي، ولم تعد رجولتي على المحك. تناولت القنينة من الممرضة بثقة، وذهبت أنزح العينة من جسدي.

انتظرتُ دوري عند الباب، رأيت رجلًا يخرج مندفعًا، والحيرة تنهش ملامحه.. دخلتُ خلفه غير أنّي

لم أهرب من المرآة كتلك المرة السابقة، نظرت إليها واثقًا، أنجزت مهمتي، ثم خرجت سريعًا والفرحة تحملني حملًا.

وحين أتى موعد المراجعة، بعد أن رفع الطبيب رأسه عن مِلفي الطبي قال بصوته ذاته الخدر المتراخي:

- لا يوجد تغيّر حتى الآن. ستعيد التحليل مرة ثانية بعد أسابيع، ونرى بعدها ماذا سيحدث.

- كيف؟! لا يوجد تغيّر.. ألم أجرِ العملية، وعادت درجة حرارة خصيتي إلى وضعها الطبيعي؟!

- نعم.. ولكن تحتاج إلى وقت ليس هكذا كما تتصوّر! يا أستاذ الإنسان ليس ماكينة، أو موتور سيارة، بمجرد أن نستبدل القطعة الفاسدة تعود الماكينة إلى العمل.. جسد الإنسان مختلف تمامًا...

قاسية الحياة حين تستبطن ما تظهر! وتبقى أنت الحارس على فوهة البركان أن لا يثور، في الوقت نفسه أنت ذاته البركان الناشط المستعر لهيبًا وحممًا.

أخبرني الطبيب المتأنق أنه عالج مشكلة موجودة بي أصلًا، وربما هناك مشكلة ثانية.. طلب مني أن أجري تحليلًا لهرمون الذكورة.. غادرته صامتًا، وبيدي

ورقة صفراء ثانية تقتادني إلى المختبر.

ما هرمون الذكورة هذا؟! أللذكورة هرمون؟ أيعني إن انخفض تحوّل الرجل إلى أنثى، وإن ارتفع تعملقت الرجولة بجسده؟!.

وكيف يجرى هذا الاختبار؟ ألم يكفهم العينات السابقة؟.

عند الممرضة كشفت ساعدي، ورأيت دمي يتسلل داخل حقنة. رأيتكَ يا دمي تنزف أحمرَ حائرًا غاضبًا.

بعد أن ظهرت نتيجة الاختبار، عدت إلى طبيبي كي يخبرني نتيجة ذاك الهرمون الذي يضطرب عابثًا فوضويًّا في أصل ذكورتي. كنتُ أسمع ولا أنصت لشيء ممّا يقوله.. كانت عباراته مدمية كرصاص متلاحق.

ـ هرمون ذكورتك منخفض؛ لذلك لا بدّ أن نتدخل حتى نرفعه! وسيكون هذا عبر تناول عقار يعيده إلى معدله الطبيعي.

لم يفلح عقلي أن يلتقط ويستوعب ما كان يهذي به.. لولا أن سارة رافقتني، وأصبحت تذكرني بما كان يقول لكنتُ أقسم أني لم أزره.. خرجت من عنده

ويدي تقبض على وصفة شاحب لونها، وكل شيء من وجعي فيها. اشتريت من الصيدلية دوائي. وقد تملّكني استغراب من الدواء العجيب! علبة كرتونية حوت أكياسًا تشبه ظروف الكاتشب والخردل. والأغرب أن سارة كانت تستمع لإرشادات الصيدلي في خوفٍ وحذرٍ!

عند المساء تناولتُ العشاء بنفس متأمّلة مستسلمة، حيث عرفت أخيرًا علّتي، واكتشفت سرّي الدفين المختبئ بين عروقي، والساري بدمي.

تناولتُ مغلفًا، ثم فضضته فسال منه سائل برتقالي لامع، سكبته على راحة يدي كأكبر ما تكون قطرة تتماوج تحت ضوء الحجرة، دهنتُ صدري وشعره، وكتفي العريضة، وعضديّ، أدلّكُ معه تعجّبي.. رجلٌ فتيٌّ يفتقدُ هرمون ذكورته! بقيتُ مكشوف الصدر، أنتظر جفاف هذا الدواء، وهو يتشربه جسدي الظامئ.. جلستُ على الأريكة بقرب سارة، لكنّها نهضت مبتعدة، وعينها يترعها الحذر.

قالت:

ـ لا.. لا تلمسني! الصيدلي قد نبّه أن هذا الدواء للرجال فقط، ويمنع أن يصل إلى جسد المرأة؛ لكي لا يرتفع هرمون الذكورة لديها؛ ممّا قد ينبت لها

شعرًا في وجهها!

لم أكترثْ لهلعها، وتشاغلت بمشاهدة التلفاز متظاهرًا عدم المبالاة.

وجعي علّمني أني أتفرّد بذاتي، وأعيش تفاصيل ألمي فريدًا. فأنا المعنيُّ به وحدي، والمكلّف أن أحمله على كاهلي بمفردي.

وجعي علّمني أن البؤس شيء محدد يصيبك أنت.. أنت دون أحد سواكَ.

قاطع حديثي مع الجارة جرس الباب، وفي طريقي إليه لمحتُ النايَ يغفو فوقَ الرفِّ..

المعزّي القادم كان أحد الأصدقاء القليلين بهذا المنفى، أعدّت جارتي لنا القهوة.. راح يتحدث لعله يُسْليني.

حين انتهى من شرب فنجانه، استأذن على الفور مخلّفًا فنجانه، وأعقاب سجائره، ورائحة عطره الصارخ. كانت الجارة تنظر إلى فنجانه الفارغ بعينين يترعهما الظمأ.. قلت لها:

- أيمكنك أن تقرئي فنجانه؟

- لا.. يا بني. حين يشرب الإنسان فنجانه، ثم

يضعه على الطاولة، ويغادر المكان يغادر برفقته قدره. عندما نشرب فنجاننا فإننا نتذوق أقدارنا. وأقدارنا كمذاقات القهوة! سكر زيادة، ومزبوط، وسادة.

ـ لكن يا جارة ما يحيرني: أيكون حالي القدر فائضًا عن احتياجنا. أم جدلية السكر تتواءم مع الطريقة التي نتجرع بها فنجاننا وقدرنا. فإن استطعمنا مرارة من أيامنا نلهث لنضع سكر اللذة لعلها تستطيب، ونظل نزيد من السكر حتى تعتل أجسادنا ولا تعود تقوى على تحمّل جرعات الفرح المصطنع الذي نذيبه. عند هذه اللحظة تمامًا نحرم وإلى الأبد من المذاق الحلو، وهل الفرح المصطنع له مذاقات الحياة الأصلية؟!

أتصدقين كلّما شعرتُ بمرارة أقطف شلعًا من باقة سارة، ثم أمتصُّ من ساقه.

رائعة مذاقات الحياة عندما تذوقها كما هي بطبيعتها الأولى، لا يحول بينكَ وبينها حجابٌ، فتضاجع حواسكَ المذاقات البكر، وتستنشق رائحة المكان، الشجر، الجداول، التراب، الهواء، رائحة المطر، وريش الطير، والورق، والزهر. تتبع أذناك أنغامًا سارية هنا وهناك، قد تنبعث من عش ترددها فراخ صغار، وغناء فلاح يحرث الحقل، وتصايح

أطفاله، ونشيد صياد عائد من البحر إلى أبنائه.. كل هذا وأكثر هو السكر الذي نذيبه داخل كوبنا اليومي.

يا جارة.. هذا هو السبب الذي جعلنا نشتري هذه الشقة لتكون منفانا الاختياري. نحن نهرب من مجتمع يغتال الفرح!

أهله لا يحسنون سوى الصراخ، ولا يتقنون غير التشكيك في نياتك، مجتمع يفتقر إلى كل ما تتذوقه حواسنا الخمس، مجتمع بلا غناء الفلاحات، ولا حداء الباعة، صامت كجثة، حتى في حفلات الزفاف.. لا يفرق بين الفرح والعزاء غير المكان والزيّ. نحن نهرب إلى هنا من قدرنا الذي يطحننا طحنًا دون هوادة ولا توقف. سألتك بربي: هل بأيدينا شيء سوى تجرّع مذاقات الفنجان، أو قولي تعوّدنا هذا سيتحوّل مع كر الأيام إلى تلذذ!

غريبة عادة اللذة بالوجع التي تستنبتها الأيام، لا يقتلها قانون العادة! لذة الوفرة تقتلها عادة تكراره، ولذة الشبع يكرسها الجوع والحرمان الوجه الثاني للعملة، غير أن الألم والمرارة تكرار تعوده يورثنا ألفة به، وتعايشًا معه.

لذلك يا جارتي.. من الأجدر بنا أن نتناول القهوة سادة؛ حتى لا نحرم لذة الطعم الحالي، ونبقى

في حسرة! أليست القهوة السادة هي المذاق الأصلي للحبوب المحمصة، وفيها نتذوق التوابل المضافة إليها بطعمها الأصلي الخالي من الزيف؟! السكر زيف وحيلة، أو قولي تواطؤ على مذاقات الأشياء، وإيهامنا باللذة. بينما لو وطنّا أنفسنا على المذاق الأصلي للأشياء عندئذ لن نخدع بسهولة، وعندئذ يمكننا الحكم بكل تجرّد. حكمًا يصيب وصف الحالة كما هي قائمة، وليس ما يعتليها من صفات زائلة أو مؤقتة. ثم بعد هذا إن احتجنا إلى كسر حدة المرارة الكامنة التي تفوق استطاعتنا فيمكننا تناول مع فنجاننا قطعة شيكولاتة، أو قطعة كعك مدهون بالزبد: ومربى الفواكه. نضعها على لساننا، ونترك للقهوة لذة الامتزاج.. امتزاج بحرين لا مرج بينهما، بحر الحلو، وبحر المر.

ـ توقف يا بني.. لماذا لا تعيش الحياة كما هي؟ فإن حانت ساعة الحزن فاحزن كما ينبغي لك أن تحزن، وإن غرد عصفور الفرح فحلّق معه أينما طار؟ يا بني ساعة الحظ لا تعوض!

ـ أتقصدين أن أكون ريشة.. إن نفختها ريح عاتية أعتلي صهوتها، وأترك للعاصفة العنان لتحط بها كما اتفق.. تنشبها بشجرة ذات أفنان، أو تلقي بها أسفل

صخرة، أو تدسها بعمق مغارة شاهقة الارتفاع، فتمكث كما قدر لها أن تمكث حتى تداعبها نسمات الفرح، ثم تعتلي صهوة اللحظة العابرة لتندفع طربًا ونشوة. يا الله كم هي الريشة قادرة على الحياة. . حاولت أن أكون ريشة في مهب العمر.

ـ يا زكريا. . الهم وزّع بالتساوي على الرؤوس.

لا تظن أنك أنت المبتلى الوحيد في هذا الكون. . يا بني مَن يفرح سيفرح معه الجميع، ومَن يبكي سيبكي بمفرده. أرأيت كيف يتقاسم الناس بسمات العيد؟ ألم تسأل نفسك: لماذا هم يتبادلون الفرح؟ ببساطة لأن واحدًا منهم ـ فقط واحد ـ يستحق الفرح. ولكن هم يفعلون هذا استبشارًا بالقادم، وعزاء عن الماضي المؤلم. يا بني إن الفرح كالعدوى بالزكام! لا يمكننا مقاومته. حين يبتسم أحدهم بلا سبب ظاهر، ويشاهده الآخرون فلا يملكون غير أن يبتسموا ببلادة في وجهه! أتعرف لماذا يا بني؟ لأنهم يرغبون في الإصابة بعدوى الفرح، وحين يسقط أحدهم دمعة صادقة صافية من نبع الآلام، فإن الناس يفرون منه، كما يفرون من المجذوم! أتعرف متى أكون في أسوأ حالاتي؟ عندما أنهي نهاري دون أن أقرأ فنجانًا. ربما

هو هروب من الوحدة. إني أضجر كوني لم أتقاطع مع قدر غريب!

أبقى في بيتي المظلم مهملة كحشرة مسنّة تيبست أطرافها. تمامًا عند تلك اللحظة أنتفض لأهرب من وحدتي، أتّجه إلى البحر، أجلس مقابل العجوز بائع القهوة، أثرثر معه حتى يأتي أحد يشتري منه فنجان قهوة فيوزع العجوز بسماته بين زبونه وبيني. أنا رهينة القهوة حتى لو لم أقرأ الفنجان لأحد. لا أستطيع الابتعاد عنها. هل تصدق رغم هذا لا أشربها في حضرة الناس إن ارتبت أن أحدًا سيأخذ فنجاني! لذلك تجدني أحمل داخل حقيبتي فنجاني. أو إن نسيت الفنجان وشربت القهوة عندهم، أفتعل أن فنجانهم سقط من يدي.

أجلس عند دكة العجوز لعل يأتي عاشقان فيطلبان فنجانًا واحدًا يتقاسمانه، ثم بالتناوب يشربانه، بعد أن ينتهي العاشقان من فنجانهما أبتسم للصبية، وفي داخلي حزن، فيجذبها الطمع بالفرح القادم، تمد لي فنجانها لأقرأه لها، وهكذا أدفن حزني بين اصطناع البسمات، والفناجين، وثرثرات العجوز بائع القهوة.

هاه.. أرأيت كيف أخرج من دوامتي؟!

أطلب منك طلبًا!

لماذا لا تحضر نايكَ القديم، وتنفّس عن نفسك قليلًا؟ ربما هو طلب غريب، لكن أشعر أنك مأزوم، وأعلم مدى ارتباطك بذلك الناي. لا تفهمني خطأ يا زكريا.. أعرف أن هذا يوم عزاء، أتصدق!! في قريتي حين يتذكّر أحد الرعاة صاحبه الذي غاب، يخرج من خرجه نايه، ثم يجلس على صخرة أو قرب البئر ويغني!!

- يا جارة لم أفهمك خطأ. بالفعل الناي أقرب الآلات إلى نفس الإنسان. إن فرح شهق الناي طربًا، وإن لفظ الإنسان زفراته، اختنق صوت الناي وبكى. لكني لا أعزف إلّا وحيدًا.

أومأت لي بعينيها الجاحظتين أن أكمل..

- أمضيت عشرات الليالي أفضّ مغلفات حزني، أدلك جسدي بدواء لعلّي أطرد سريعًا هذا المستعمر الخفي، وأتخلّص منه بلا رجعة، كلي رهبة من علّة خفية كمنت لي بين العروق. ظللتُ طوال عمري الفائت متفاخرًا بجسدي، وقوامه الرجولي المفتول.

عندما دقت ساعة الصفر التي ينتظرها كل رجل، اكتشفتُ أني كنت بالونًا تافهًا، يشبه المنطاد المفرغ من

الغاز، عاجزًا عن التحليق، فروحي تحمل مومياء جسد. . . !

في تلك الفترة شغلني هاجس كيف كانت سارة تنظر إليّ!

ظاهرها يبدي تعاطفًا معي، غير أن لكل شيء نهاية! هل تعاطفها مؤقت حتى أشفى، ثم تعود المياه إلى مجاريها ويصفو ماء حياتنا. . أم هو دائم؟!

كانت عواصف الفكر تمور بي متى ستعلن سارة انسحابها من حياتي؟ لتبدأ حياة أخرى في مكان آخر؛ لتكون أمًّا ترضع، وأمًّا تحتضن، وأمًّا تسهر، وأمًّا تفرح بصغارها حين يتحلقون حولها عند كبرها. أمًّا تنعم برعايتهم، وتتوج كملكة على أسرتها وأبنائها وزوجاتهم وأحفادها. تأمر وتنهى والجميع يسترشد بحكمتها. تفيض عليهم بنصائح العجائز. تهب لهم وصفاتٍ وأعشابَ نباتاتٍ ومساحيقَ.

كنتُ أفكر ما الذي يدفعها إلى أن تبقى معي؟ ما الذي يجعلها تعطل طوع إرادتها رحمها البكر، وحرمان لحظة اكتشافها أنها حامل. تنام وتصحو كل صباح تتحسس بطنها الذي يتضخم ويتكوّر، وتفقد تجربة تنتظرها كل أنثى منذ أن كانت طفلة تلعب بالدمى.

كنت حين أتجوّل معها في السوق تفرّ منها نظرة إلى رضيع تحمله أمه، ثم تنظر بخلسة إليَّ، أصطاد نظراتها تلك، وعلى الفور تهرب وتتشاغل بأتفه الأشياء. ربما تشتري سلسلة ليس على ذوقها الذي أعرفه، أو قد تشتري حذاءً تكتشف حين تصل إلى البيت أنه لا يناسب قياسها.. المهم أنها تتخلص من تلك الاقتناصة.

- يا بني هل صارحتها بهذا؟

- لا لم أجرؤ أن أصارحها بما يعصف داخلي.
كل الذي أرغب فيه أن أمضي كما تريد حياتي. فأنا لو كاشفتها سأكون الخاسر بكل الأحوال. خاسرًا لو عرفت أنه تعاطف مؤقت. وخاسرًا لو أدركت أنه دائم وإشفاق مقيم. سيبقى داخلي انكساري، ويبقى داخلي حزن عليها؛ لأنها حرمت نفسها رغم قدرتها حصد الفرح من حقول عمرها مع غيري.

لا أخفيك جديًّا فكّرتُ في مصارحتها. أخبرها بأن ننفصل، وكلّ منا يرحل إلى مرافئ قدره. ولكن كلّما وضعت الدواء على جسدي، يتنامى داخلي بذور الأمل.. خصوصًا وأنا ألاحظ سرعة نمو شعر وجهي بعد الحلاقة.

بعد أن أنهيت جرعات الدواء المقررة لي. كل تلك الفترة كنت في حالة تعايش مع وجعي. لم تعد تعني لي التحاليل شيئًا. ولم أبالِ انخفض أم ارتفع هرموني!

في الزيارة الدورية للطبيب أخبرني أن هرموني استقر على معدله الطبيعي. وأن أدع القلق، فكل شيء طبيعي جدًّا.. جدًّا. غمرني الفرح، وتمددت ابتسامة فوق شفتي. وكلمات الشكر تنهال عليه مرتبكة مبتهجة. خرجت برفقة سارة كانت نظراتنا تتعانق. وخطواتنا متناغمة على إيقاع الشفاء. حتى الضوء المنعكس فوق زجاج الباب الكهربائي كان يتراقص. ومن خلفه بحر يتماوج، وهواء يداعب أطراف ثياب المارة، يلاحق أوراق الشجر.

استنشقت رائحة العافية، واستنشقت معها عبير ذرة مشوية. وقفت عند عربة الذرة، وكومة سنابل خضر أسفلها، وأهدابها الشقر تتمايل كأذيلة أحصنة منتظرة. استل البائع سنبلتين، ونزع عنهما أوراقهما الطرية، تأرّجت رائحتهما الطازجة، وبدت حباتهما المتراصة غضّة ندية. طرحها فوق الجمر، وما أن نضجت حتى مضينا نمشي باتجاه البحر. كانت القضمة الأولى ذات مذاق مختلف، والحبات تلوكها أسناني لينة حالية شهية.. أهذه مذاقات العافية؟! وإحساس أن ماء الحياة

عاد يجري بين العروق. وتحرر جسدي من مخالب الوجع. . لأول مرة أشعر بأني أستحق هذا الجسد، وأن رجولتي كاملة لا نقص فيها. . أمام البحر صارحت سارة بكل ما كان يشغلني. خوفي من ذهابها، وخوفي على بقائها. شعرت أن الموج كان يضرب رؤوس صخور الوجع فيغمرها ويغسلها غسلًا. ورائحة اليود تتغلغل داخل أنفاسي وتصفيني وتطهرني من هواجس ومخاوف حاصرتني ليالي طويلة. أخبرتها بكل شيء. . بكل شيء، بضعفي وهشاشتي، وبوجلي وحيرتي، كانت خطواتنا تسابق الرذاذ الأبيض، تمهّد طريقًا معبدًا بعيدًا عن ذكرى سوداء، لن تعود مرة أخرى. كنا نتنفس الفرح، ولكأن العالم كله فرح لفرحي، ومسرور لابتهاجي، وفي البيت هرعت لبقايا علب الدواء أتلفتها. جلست ملتصقًا بسارة عاري الصدر، وكل بشرتي ملتحمة ببشرتها. كأني لأول مرة أشعر بخلاياي تستشعر بلا حذر، ولا حائل.

خلايا بعثت من جديد تتحسس ملامس الحياة.

جارتي حان وقت الغداء، ما رأيك أن آخذك إلى مطعم كانت تفضّله سارة؟

- 12 -

بمجرد أن هبطتُ من سيارتي، استقبلني موظفُ المطعم، وقادنا إلى طاولتي المعتادة. سأل عن سارة: هل ستأتي؟ لا لن تأتي! ربما سافرتْ؟ بلْ هاجرتْ! استغربَ فظاظتي، وتعجّب من تلك العجوز المجللة بالسوادِ التي ترافقني!! إلَّا أن لباقة مهنته تمنعه أن يتمادَى أكثر.

أحضر قائمة الطعام، وبقي النادل يقف قرب الطاولة كعلامة تعجّب كبيرة، من التغيير الذي طرأ على زبونه المعتاد، ثم انصرف بعد أن اخترت طبقي المفضل، واختارت الجارة طبقها. أرأيتِ يا جارة كيف هذا المطعم، يحمل شيئًا من روح سارة؟ أنظري إلى أصاصي الزرع، وركنياته، وهذه الشرفة الواسعة المطلة على البحر؛ حتى المطعم اسمه الزهور، مطعم في أوقات النهار لا يحتاج إلى كثير من الإضاءة، تمامًا مثل صالة بيت سارة التي تغزوهاالشمس، وذوائب الظل.

خلال انتظار الطعام كانت سارة لا تكفُّ عن تصوير البحر وأمواجه، كنت أشعر حين أنظر إلى عدستها أنها تلتقط شيئًا لامرئيًا، لكنّه موجود بين الموج المتكسّر أسفل الشرفة. وانتظاري اليوم في هذا المطعم معكِ ذكّرني بفترة من الانتظار سادت حياتنا.. امتدّت أعوامًا!

بعد شفائي من هرمون ذكورتي، وعملية الدوالي، كنتُ أترقّبُ أن تتأخّر الدورة عن سارة، التي كانت قد نظمتها مع الطبيبة السمينة، ويتوقف هطل مطرها الشهري الأحمر، وجفاف سيل دمها.. كنتُ على استعداد أن أستيقظ ذات صباح لأرى علبة تحليل الحمل اليتيمة المنتظرة على رف الصيدلية أن تختفي.. بقيت أنتظرُ، والعلبةُ تنتظرُ، وسارة تنتظر...!

لم أجرؤْ على مفاتحتها، فقد حفظتُ لها جميلها معي، حين كنتُ أنا الموجوع.. فهي لم تتحدّث إليَّ، ولم تقل شيئًا.. صحيح أني كنتُ أقتنص نظراتها، ولكن تبقى نظراتٍ صامتةً لم تقيّدها الكلمات. كانت نظراتنا تغني عن ألف حديث نفتحه بيننا.. كلّما ذهبنا نشتري حاجاتها الخاصة، أرى على ملامحها فجأة - بلا توقيت - غضبًا يدهمها، تحديدًا عندما تتذكّر أن موعدها الشهري لم يتأخّر، وفقدت فرصةَ حملٍ.

ذات يوم هاجمتني: في عينيكَ شيءٌ! أنتَ لم تقلهُ، ولكن نظراتكَ تفضحكَ! لماذا أنتَ هكذا؟ ألأنّكَ شُفيت تظنّ أنّه من حقّكَ توجيه سهامكَ نحوي؟ لماذا تنسى ما أصابكَ، وتجحد كل ما صنعته من أجلكَ؟

كانت منفعلةً، وأدمعها تنهمرُ، ووجهها أحمر، وقد انتفخت عروق رقبتها، وارتجفت أصابعها.. صوتها مزّقه الغضبُ لكني لم أستطع التحمّل، فاشتبكتُ معها.. ساخرًا من كلٍّ ما تصنعه لها أمّها، مسفّهًا كلَّ وصفاتِها التي تتشبثُ بها؛ لأنّها رأت كيف فشلتْ وصفاتُها، ونجح الطبُّ معي! خصامنا لم يطلْ إلَّا أيامًا، فقد جاءت إليَّ ذات صباح، وقد ارتدت ملابس الخروج.. وقالت:

ـ أنا حجزتُ موعدًا عند طبيبتي.

رفضتُ أن أذهبَ بها إلى طبيبتهَا السمينة تلك، وأخبرتُها أنّها طبيبةٌ فاشلةٌ، كلّ ما صنعته لها هو تنظيم دورتها.. لماذا لا نذهب نستشير طبيبي؛ علّه يرشدنا إلى عيادة يعرفها؟!

لم تخالفني، وانقادت طيّعةً لي.. دخلنا عليه، أخبرته بأن هذه المرة ليس لي، بل لسارة.. ضحك بصوته الخدر المتراخي ذاته، نصحنا بزميلٍ له عيادته

في مستشفى آخر. . أخذتُ بطاقة توصية منه، ثم في السيارة قالت سارة:

ـ أترضى أن يكشفَ عليَّ رجلٌ؟ أما تغار؟!

ـ لماذا لمْ تَغَرْ من الأطباءِ يا جار؟

ـ ربّما نحن نغار حينما نشعر بضعف. . ضعفنا من أن محبوبنا سيتركنا لمن هو أفضل منّا. . الغيرة ضعفٌ مبطنٌ برغبة الاستحواذ. . نعم استحواذ، وتملك، ومحاصرة. نفعل هذا لخشيتنا؛ بل لعدم ثقتنا بأنفسنا، وأننا جديرون بمن نحب. أعلم أنه شيء غريب. لكن مَن تبْقى تحت مخالب غيرتي لا حاجة لها بي. . ومَن تحاصرني قسرًا، فأنا لا حاجة لي بها.

حتى لا تشعر بنغزات الخيانة افْتح باب القفص، وإن عاد لك طائركَ فهو لكَ دون العالمين.

وممن أغارُ!! من طبيبٍ يُعرضُ عليه صباح مساء صنوف النساء الموجوعات!! قطعًا لو كان يرغب لن ينظر إليهن، ويشوّه سمعته المهنية التي يسترزق منها!

كيف تريدين أن أتغاضى عن هذا كلّه، وأنساقُ لغيرةٍ تنبت بذورها البشعة في بساتين الظنون المريبة؟!

هذه المرة التي كنا ننتظر عند باب الطبيب. .

كنتُ أقلّبُ بطاقة صغيرة موقعة باسم طبيبي، أكرر قراءة الكلمات التي كُتبت على عجلٍ: (صديقي الدكتور خالد: حاملُ هذه البطاقة مريضِي، وتهمّنِي حالتُهُ كثيرًا، أرجُو مساعدةَ زوجتِهِ، ولكَ التقديرُ)..

ثم أدقّقُ النظرَ في التوقيعِ الصغيرِ، وأحاول استنساخه على علبة المناديل التي أعبثُ بها. وكانت سارة تجيل النظر بين شهادات الطبيب من أميركا، وخطابات الشكر، ورسومات لرحمٍ، وبويضاتٍ، ومبايضَ.

نُودي على اسم سارة، فنهضنا..

وبمجرد أن تجاوزت الباب رأيتُ شابًّا أبيضَ البشرة، تزيّنُ وجهَه لحيةٌ أنيقةٌ، يعلّقُ خلفَ مكتبه لوحةً قرآنيةً ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ عرّفته بنفسِي، ناولته بطاقة التوصية.

قرأها بسرعة، ثم سأل سارة عن عمرها؟ وعدد سنوات الزواج؟ ومِمَّ تشتكي؟ هل سبق أن ذهبت إلى طبيب من قبل؟ أخبرته سارة كل شيء عن وصفاتِ أمّها، الطبيبة التي صوفت لها أدوية لتنظيم دورتها الشهرية، حملها الذي تأخّر كثيرًا، أمرها أن تذهب إلى سرير الكشف...

سحبت الممرضةُ ستارة بيضاء، تسلّل من خلفها صوتُ نغمات جهاز أشعة، خطوات يسيرة، صرير السرير، وصوت الطبيب يهمهم: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، وأدعية بجمل قصيرة من كلمة واحدة، وجمل اسحبي نفسًا.. أختي احبسيه.. استرخي.. لا تتوتّري.. كل شيء تمام.. وما هي إلّا دقائق حتى خرج إليَّ وخلفه سارة ترتب هندامَها.

جلسَ على كرسيّه يدوّن في ملفٍ، ثم رفع رأسه:

ـ يا أختي الأشعة تفيد أن هناك تكيّساتٍ حولَ المبيض. وبالنسبة إلى الرحم فإنها بحالة ممتازة، ويتعيّن عليكِ أن تُجري تحليل دم، وأشعةً ملوّنةً، الأشعة الملوّنة عبارة عن مادة نحقنها، ثم ننظر هل هناك التصاقات وما شابه.. ثم عودِي إلي بعدها، وسأخبركِ ما الخطوة التي تليها.

في المختبر رأيتُ دمَ سارة يزحف متباطئًا داخل حقنة سحب العينة.. كانت مرتبكة، أطرافها ترتعش باردة، وقطرات تتساقط كديمة مطر من عرقٍ فوق وجهها.

هربنا من المختبر إلى وحدة الأشعة، وهناك أخبرونا: أن هذا النوع من الأشعة يجرى بطريقتين: إمّا

تحت تخديرٍ كاملٍ يجنّبها آلام إجراء التصوير، ولكن لا يوجد فرصة اليوم، وأقرب وقت ممكن بعد يومين. . أو إن كانت ترغب بدون تخديرٍ كاملٍ فسنجريه لها بعد ساعتين.

تركتُ لسارة حريةَ الاختيار، هي المعنيّةُ الأولى والأخيرة بجسدها، لكنّها فضّلت الوجعَ على نصالِ الانتظار إلى الغد! ثم مضينا إلى مقهى قريبٍ نبددُ فيهِ ـ كما اتفق ـ هاتين الساعتين. .

طلبتُ كوبَ قهوة تركية، كثيفة السكر، ولم تطلب سارة شيئًا. بقينا ننظر إلى عقارب الساعة البطيئة، إلى ستائر المقهى الترابية، أضواء السقف المرصوصة كطوابير جند. حضر فنجاني، وقد سبقه رائحته الطازجة.

فنجان أبيض صغير جدًّا يقف على طبق بلا حواف، غير أن وجهه لم يكن شهيًّا، ارتشفتُ منه رشفةً، والمذاقات الأولى للتبغِ والقهوةِ تأخذ برأسي، وتعيد إلي هدوئي.

ـ لماذا أنت قلقة يا سارة؟! هي مجرد أشعة بسيطة لا تضر. ثم إنهم لم يفعلوا شيئًا فقط سيلتقطون صورًا فقط ويطمئنون.

ـ آه. . هذا هو الذي يقلقني، أخشى أن يكتشفوا شيئًا لا أعرفه، لأول مرة بحياتي أجري هذه الأشعة. . تخيّل أن يحقنوا جِوفكَ بسائلٍ ملوّنٍ، ثم يتابعوا كيف ينتشر هذا السائل بين عروقكَ وقنواتكَ. شيءٌ مرعبٌ. . مخيفٌ. ماذا لو أن السائل تجمّع عند نقطة محددة؟ ألا يعني هذا انسدادًا؟! ألا يعني هذا عطبًا، وأن الدم والغذاء لا يصلان إلى كلِّ خليةٍ بجسدكَ؟ ألا يعني هذا موت خلايا؟! هل تُبعث الخلايا من جديد؟ هل تعود الحياة إليها؟ وكيف؟

ـ سبحانَ مَن يحيي العظامَ وهِي رميمٌ! ثم لماذا تفترضين السيناريو الأسوأ؟! فربما كل مخاوفكِ سراب. . وحتى لو لم تكن سرابًا ستكتشفين السبب الرئيس، وتعالجينه. تمامًا مثلي أنا. . أليس هذا أفضل من أن تمضي في عمرك، وأنت تجهلين علّتكِ؟

مزّقنا تلكما الساعتين، بين ضوء الفأل الغامر لنوافذ المقهى المنعكسة على وجهي، وبين عتمة الخوف الساكن في قاع فنجاني وداخلها.

كلّ منا لم يستطع نزع إحساسه المتشبث به. عدنا إلى الأشعة، كانت خطواتي متسارعة، وخطواتها تكاد تمشي القهقرى. أدخلوها إلى غرفة، بقيتُ أنتظرها

واقفًا عند سدة الباب، تصلني تكتكات وخطوات تخفي كل الهمهمات، ليته يسرّبُ همسًا علّني أستأنس به. عشر دقائق من الانتظار، ثم هتك تأوه صمت الباب، إنها تتوجع!! كانت قصيرة، وخاطفة، وعميقة. ثم خرج مهرولًا فني الأشعة إلى الممر، وقد قذف إليَّ جملةً ومضى سريعًا.

- التقرير عند طبيبها.

دخلتُ على سارة، وهي لا تزال ملقاةً فوق السرير، نظرت إليها كانت عيناها قد اغتسلتا بالدمعِ، مجهدتين، حمراوين. مددتُ يدي لها، وساعدتها على النهوض.

وحين هممتُ بالخروجِ رفضت العودة إلى البيت، تريد أن تنتظر النتيجة.

توجهتُ من فوري إلى المختبر، وبقيت سارة تنتظر على مقعدٍ قريبٍ. في المختبر أكدوا لي أن النتائج ستكون في الغد جاهزة، لكن لو تدفع سنعاملها معاملة «Vip!» دفعتُ ما يقاربُ الضعفَ؛ لتخرج بعد ساعات، ثم اتّجهتُ إلى طبيبها فأخبرته بأمرها، وحالتها النفسية.

أخبرني أنّه مشغولٌ حدّ الغرق، لكن سينظر ملفها

قبل أن يغادر العيادة، سيكون هذا في نهاية العمل بعد العاشرة مساءً. كل محاولاتي فشلت في إقناع سارة أن نغادر المستشفى، أو حتى نذهب إلى مطعمٍ قريبٍ. وكلّ ما فعلته سارة هو أن اقتعدتْ على كرسيٍّ قبالة باب المستشفى، ترقب الداخل والخارج، صامتةً لا تتكلم، متكلسةً لا يتحركُ فيها غير عينيها الغائمتين، ولكن كلّما اقترب عقرب الساعة القصير من العاشرة ليلًا يتخلّص جسدها من تكلسه؛ حتى وصلت قرابة العاشرة إلّا دقائقَ معدودة. فانتفضتْ بسرعةٍ، وتحرّكت أطرافُها لكأنّها بُعثت من مرقدها. راحت تسعى صوب باب طبيبها. وقبل أن يهمَّ بالخروجِ اعترضتْ طريقه، ذكّرته فعادَ إلى مكتبه.. نظر إلي، وإلى سارة، والملف.

قال: هذه المعلومات خاصة بكِ، لكن لابد أن يعرفها زوجكِ!

- أخبرنا أنه سيبدأ بطريقة مختلفة عن الحبوب المنشطة، التي كانت تأخذها في السابق.. إنها إبر محفّزة للمبايض.

(ستُحقن إبرة كلّ يومٍ حتى اليوم الثامن من بداية دورتها، ثم أفحص حجمَ البويضة حتى أتأكد هل الجرعة كافية؟ ومن ثم أحدد موعد التلقيح).

ألقى نصائحه المبهمة دون أن يكترث لشيء، منهيًا وقت الزيارة: (كان الله بعونكم).

في الصيدلية اشتريتُ الحقنَ، وقد غاصت بين مكعبات الثلج. ونصائح الصيدلي أن لا تتعرض للشمس، ولا للحرارة. وبأسرع وقت ممكن نحفظها في الثلاجة. عادت سارة إلى التدوين في دفترها الأحمر! الدفتر ذاك المحتفي بلون دمها الشحيح الحائر. . تكتب فيه تاريخ وجع جديد، مع طبيب آخر.

فتحت صفحة جديدة وخطّت في أعلاها اسم الطبيب، وتاريخ الزيارة، وتاريخ أول يوم تبدأ معه خطة التهام علاجاتها.

أول يوم تناولت فيه حبة دواء، وكيف تتناوله على مدى واحد وعشرين يومًا لتنتظم دورتها. كل مساء تضع علامة على اليوم علامة. . اثنتين. . خمسًا. . خمس عشرة، والصفحة البيضاء يحتلها حبر الانتظار الأزرق.

حتى وصلت إلى اليوم الواحد والعشرين، توقفت، وتركت مساحة فارغة بلون البياض، مترقبة موعدها الحميم. . بعد.سطرين خاليين دوّنت بالحبر الأحمر تاريخ فيضان تنورها المرتقب طوال أسبوع كامل تنتظر أن يُغاض نبعها الأحمر، ويجف حقلها.

كل مساء تفتح سارة الثلاجة، وتأخذ حقنًا تدسّها بين مكعبات الثلج. وأمضي بها إلى المستوصف القريب. كل يوم يخزها الأمل برأس إبرة حارة. كل يوم تتناقص فيه أصابع الزجاجات، يحقن جسدها بالأماني.. حتى حان يومها الثامن. يوم كشفها..

كانت خائفة مضطربة، ولكأنها لأوّل مرة تزور طبيبًا. كان صوت أنفاسها يأتيني من خلف ستارة الكشف. وبيب.. بييب ميزان الحرارة، فخ.. فخ الضغط طبيعي. خذي نفسًا، استرخي ممم.. حوقلات الطبيب، تكتكات الأدوات.. ممم.. الشاشة لم تظهر شيئًا!! لحظة يا أختي.. اصبري! مممم.. هذه البويضة اليمين، وهذه اليسار أصغر.. حسنًا.. حسنًا انتهينا، اندفع مسرعًا من خلف الستارة، ثم تبعته سارة، وكل منهما قد عاد إلى مقعده.. دلق الطبيب المتأنق نصائحه محددًا اليوم الرابع عشر، والخامس عشر من تبويضها أنهما أيام الحرث والإخصاب.

يبدو أن الوجع سيزور بيتي بالتناوب! فما أن انسحب عني ـ أو كما هُيّئ لي ـ اقتحمني من جانب سارة.

إننا قد تحوّلنا إلى حالة طبية تطارد سرابًا يتوارى

عبر ممرات المستشفيات. حالة طبية تسير وفق مراحل ثابتة. وما على المريض سوى أن يستقبل مرحلة، ويودّع أخرى. سليب سيناريو ثابت، أو لنقل سيناريوهات محددة، تم متابعتها واختبارها واستقراؤها داخل المختبرات. فمسيرة حياة الحالة الطبية مفضوحة لدى الطبيب الحاذق. الأشعة تبدي كل مختبئ، والتحاليل بنسبها المجردة الصارمة لا تحايد، ولا تملك عاطفة توجهها. أكثر ما تستطيع فعله هو المراقبة الدقيقة ويبقى للجسد حكمه النهائي، هذا لو افترضنا أن له كلمة مسموعة.

ـ 13 ـ

بعدما رفع النادل طبقي، وطبق البصارة، وأعاد ترتيب الطاولة، جلب فنجاني قهوة تركية شهية الوجه. أشعلت البصارة سيجارتها وراحت تنفثها في الهواء.

ـ جاري. . أتدري ماذا رأيت في فنجانها؟ في كل مرة أقرأ لها تختم الحديث بيني وبينها بوعد أن لا تخبرك عن فنجانها، وأعلم أنها كانت وفية للوعد الذي تقطعه على نفسها، دون أن أطلب منها هذا. فأنا حين أقرأ لأحدهم لا يهمني غير صاحب الفنجان، ولا يعنيني أأخبر به كل العالم، أم دفنه في صدره، لا قيمة ولا أثر لهذا على بِصارتي.

إني في كل مرة أقرأ فنجان سارة كنت أرى منحوتات القدر متكلّسة في قاع فنجانها، واضحة شهية. ولكن في آخر مرة قرأت لها فنجانها كانت عيني تغوص داخل الفنجان تتفحصه لعليّ أستطيع فك طلسمه!

لأول مرة في حياتي أبصر فنجانًا باهتَ النقش. ارتعبت وظننت أني كبرت في السن، وضعف بصري! رفعت رأسي عن فنجانها، نظرت إلى ما حولي، كل شيء طبيعي، وجوه الناس، أرقام لوحات السيارات المسرعة، ألوان ريش الطير التي تلوّن السماء، كل شيء.. كل شيء أبصره كما هو. عدت إلى فنجانها الضبابي، ونقوشه المتداخلة المنصهرة، قُبض قلبي من هذا الفنجان، ألقيته عن يدي متصنعة أنه وقع بغير قصد. لاحظت أن سارة كانت قد ارتبكت ممّا اعتلاني. كانت عيناها غارقتين في الدمع. ناولتها كوب ماء، ثم احتضنتها إلى صدري، وبعد أن هدأ بكاؤها كشفت عن وشمٍ بشعٍ قديم على بطنهَا. ثم سترتهُ بسرعة قبل أن يراهاأحدٌ المارة. أخبرتني أنها في السابق كانت كلمة إعجاب لطيفة قادرة أن تزهر بسمة على شفتيها، وتجعل وجنتيها حمراوين خجلًا وحياءً.

قالت لي إنها غيّرت أثاث بيتها مرارًا ولم تبتهج. اشترت حليًّا جديدة ولم تبتهج. غرقت في العمل ولم تبتهج. ألقت نفسها بين الألوان، ودهنت بفراشٍ منوّعة لوحات فنية ولم تبتهج، قرأت، زارت، تشاغلت بتوافه الحياة ومشاغلها ولم تبتهج.

كنت يا جار أنظر إليها، وهي تنهار وانفعالاتها تخنق صوتها. أخذتها من يدها إلى كشك على الرصيف، وطلبت كأس ليمون مثلجًا.

هاه.. أتذكر كيف كانت تشربه في تمهّل، لها عينان ساهمتان مسافرتان مع نوارس البحر.. دفعت إلي كوب عصيرها.

هل تصدق يا جار أن هذه أول مرة أقرأ نقوش الثلج، وقد أضمرت شيئًا داخليًّا، أضمرت أن لا أقرأ لها.

- إنه بيت!

- وي.. يا جارتي توقفي أحقًّا رأيت بيتًا داخل كوبي؟

- رفعت وجهي عن كأسها الثلجي الذي يصلني منه رائحة ليمون وأوراق نعناع منعش، ونظرت إلى ملامحها، كلي دهشة حتى العبث فيه له حكاية؟!

فأخبرتني بحكاية العجوز أم صخر.

- نعم كان بيتًا حقيقيًا! في صباح ما نهضتُ وارتديتُ ملابس الخروج، دون أن أخبر زوجي. استوقفني قائلًا إلى أين؟! قلت له: هل تريد أن توصلني أم لا؟ أنا ذاهبة إلى أم صخر!. أمي وصفت

لي عجوزًا تداوي بطب البدو. لم أرغب أن يرافقني لكنه أصرّ. ثم اتجهت سيارتنا إلى ضاحية قريبة، تركت الطريق الرئيس إلى آخر فرعي ممهد. تجتاز الضاحية وبقايا بيوت طينية، وأسوار مزارع مهجورة تحرسها أعجاز نخلٍ خاوية. توقفنا عند بقالة مستخبرين عن بيت أم صخر. كانوا صبية يضعون فوق رؤوسهم طواقيَ مصفرة من القذارة، يميلونها إلى الأمام بالكاد تظهر أعينهم من تحتها، يرتدون ثيابًا ملوّنة، ويمسك بعضهم بنبل، وبعضهم بصرار من البرجون البلوري الملوّن. فأشاروا جميعهم إلى سور لصيق بالبقالة، وقد كتب على بابه يافطة أكلها الصدأ (بيت أم صخر).

أوقف زوجي السيارة قبالة الباب المفتوح، نظرت إلى الداخل، برج حمام شاهق يتطاير منه إلى مئذنة المسجد القريبة، خرجت امرأة تتكئ على عكازها تعضدها شابة.

غادرت السيارة يتنازعني حذر وإقدام. اجتزت المسافة المتوهجة تحت أشعة الشمس التي تسبق السور. دنوت أكثر حتى تجاوزت فجوة من ضوء يمزق ظل السور الطويل. ابتلع مستطيل الباب جسدي وظله. كنت أخطو نحو مجهول كامن يترصدني خلف السور.

انتصفت في الحوش فرأيت في آخره حظيرة، ويحتل مقدمته بيت ذو طابق واحد، وعلى أقصى اليمين غرفة مهملة. أطلَّت من إحدى نوافذ البيت طفلة حنطية البشرة، ذات جديلة واحدة، مشيرة أن أذهب إلى الغرفة القصية.

طرقت الباب، خرجت امرأة ملامحها تشبه الطفلة التي استقبلتني. كانت عجوزًا تعصب رأسها بشال أسود تتطاير أطرافه.

ـ يا هلا.. ويش تبين يا بنيتي؟

ـ أريد.. أريد أم صخر.

ـ أنا أم صخر!

ـ لو سمحتِ سمعتُ أنكِ تعرفين طب البدو؟

ـ ما عاد فيه بدو يا بنيتي. تفضّلي.. تفضّلي. بس يا بنيتي انتظري دوركِ. ادخلي حيّاكِ، أو تنتظرين بكيفك.

ـ شكرتها مفضلة البقاء في الخارج.

رحت أمشي بين جنبات الحوش، وخطواتي تطأ أرضًا ممهدة بالحصباء الناعمة، محدثة صوتًا مكتومًا مملًا رتيبًا.

حتى عند طبيبات البدو أنتظر دوري! أما يكفي أن المريض يمضي عمره المتبقي على هذه الأرض انتظارًا؟!

اتّجهتُ إلى حظيرة في ركن قصيّ، خراف، وعنزات، دجاجة «ترجن» على بيضة، أرانب تتقافز هنا وهناك. يا الله أعجزت أن أكون مثل هذه البهائم الوديعة، وأن أنجب كتلك العنزة كبيرة البطن!

أأنا غير قادرة أن أكون مثل تلك الدجاجة التي ترجن بوداعة وسلام؟

أحقًّا يوجد بين هذه الحيوانات أنثى عاقر؟ لم أسمع من قبل أن أنثى البهم لا تنجب؟ وماذا عساها أن تفعل لو أدركت أنها عاقر؟ ربما تنبذها الحظيرة فتطردها. تمامًا مثل ما يفعل مجتمع البشر. يعتبرون العاقر ليس كسائر البشر المؤهلين لأن يحملوا بذور تناسلهم واستنساخهم الطيني. أقصى ما يفعلونه هو الشفقة عليهم، وتذكيرهم دومًا أنهم ناقصو التكوين. تذكيرًا إمّا مباشرًا صريحًا حادًّا كنصل خنجر يمزق العمق، يصوبون سهمًا لا يخطئ. أو أنهم يسرّبون لنا نقصنا بنعومة دعوة في وجهنا يلقيها، ولكأننا المعنيون بالاستجابة.

آه إن وعينا العميق بذواتنا هو مصدر توجع لنا. تطوقنا بسهام تغرس نصالها فينا. هذه الكائنات البشرية وعيها بحاضرها المهدور يمزقها تمزيقًا.

اقتربت أكثر من ضرع عنزة مثقل بالحليب، ثم تحسست صدري. صحيح أني أملك ثديين كبيرين، ولكن ما الفائدة فهما عاجزان أن يرضعا طفلًا، ويهبان لعروقه الحنان. أنا التي تحولت بفعل عوامل تعرية الحياة من أنثى حلمت ذات يوم بأن تسرف في الإنجاب، إلى أنثى ستنفق عمرها خلف سراب. أنا المنزوعة الحلم، المبتورة الأماني، المنقطعة في طريق طويل.. طويل.

كل دراستي الجامعية وتخصصي في الأحياء جعلني أكثر تعمقًا بوعيي، وأكثر معرفة لما يسببه انقطاع النسل عن الأنثى.

إنه يعني ذهابها إلى العدم، تمامًا مثل تلك الكائنات الضخمة التي كانت تعيش على هذه الأرض، فعجز إناثها عن زيادة الإنجاب، ورفع عدده إلى حد يفوق وفياته، هذاالذي جعلها تنقرض. لذلك تسعى جمعيات استشعرت خطر الانقراض، تركز اهتمامها بالإناث، فهي المخزن الإستراتيجي القادر على استمرار تزويد هذه الأرض بعمارها.

إنهن إناث عظيمات فقط؛ لأنهن يمتلكن أرحام ولّادة. لماذا لا تهتم تلك الجمعيات بإناث البشر؟!

ألأننا نحن من الوفرة الكافية تجعلهم لا يكترثون لعواقر النساء؟!

أمضيت وقتي في حوش أم صخر، أرصد سلوك صغار الأرانب، ناظرة إلى ضروع أمهاتها، وكيف يتشممها الصغار، أتابع صغار البط وهي تلاحق أمّها بنية الريش، وأسمع توجع البقرة لابتعاد عجلها الذي يبدو أنه وُلد حديثًا. عجبًا للبشر حين علموا أن البقرة يجف ضرعها إن هي رأتهم يخطفون صغيرها أثناء وضعه، فتعاقبهم بأن يشح الحليب في ضرعها! لذلك يتفنن البشر حتى يتحايلوا عليها، فيخطفوا الصغير قبل أن يهبط إلى الأرض، وقبل أن تبصره عينا أمه، ثم يأتون بإناء كبير ويملأونه حليبًا فيغطس الخاطف إصبعه بعد أن يكسوه بالتمر، ثم يرضع الصغير طرف إصبعه، ظانًّا المخدوع أن هذا الذي يمتصه هو مذاق ضرع أمه، حتى أمه المخدوعة تستسلم لوهم جبروت الموت الذي خطف صغيرها العجل.

كل صباح أمزج قهوتي بالحليب، أتساءل: من أين حُلب؟ وبأي مرعى تقبع فيه تلك البقرة الحلوب الولود؟

أُصاب بالذهول كلّما أقبلت على برادات السوبر ماركت وقد تكدّست رفوفها بتدرج ألوان مشتقات الحليب. أبيض ناصع، وآخر أبيض يخالطه طيف صفرة زبدة. جبن لامع وناصع البياض، وآخر يتدرج في الصفرة حتى يصبح أدكن. أو تكسوه غلالة خضرة أنزيمات التجبين. بعضه بقوام خفيف رشيق، وآخر ثخين غليظ، بعضه بالكاد يتماسك، وبعضه صلب كلوح. هذا الحليب الأبيض الذي هو نصيب العجل لا نعلم من أي بقرة حُلب! لكن رغبة البقاء جعلت البشر يحلبون كل ضرع حتى آخر قطرة لمصلحة أبنائهم. لذلك قد طوروا علومًا في تربية إناث البهائم، فيقدمون لها أقل الأعلاف اقتصادية، في مقابل أكثر كمية متاحة تدرها من الحليب.

كيف لو جفت كل ضروع العالم، وما عادت تفيض بالحليب أتستقيم الحياة؟

المؤكد أننا لن نرى البياض في وجباتنا، ولن نتذوق نكهاته المتنوعة، سيفقد البدو لبنهم المعظم. وستفقد عائلات ريفية ألقابها التي نحتته بالبياض طوال عشرات العقود. وسيتحوّل بهاء مروج جبال الألب، وتتحول نباتاتها الغضة إلى أحراش نباتات شيطانية

متطاولة، تشتبك أفنانها وتتساقط أوراقها حتى تغدو تلالًا من أدغال فاقعة الخضرة.

كذلك سيختفي كعك العيد برائحته الشهية، ربما ستقفل محال عوائل متوارثة تصنع من البياض أبهى صواني المعمول، وصدور الكنافة وأكواز البوظة.

ألم يتساءل منذ القدم قوم نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام كل صباح: (أحلب الشهباء؟) حتى سمّي موضع تلك البقرة المعطاء مدينة حلب الشهباء.

كيف ستمضي بي الحياة، وأنا لست كسائر الإناث اللواتي تتدفق أثداؤهن حليبًا أبيضَ رقيقًا كلّما اقترب منها وليدها، أو غمرها الحنين إليه.

آه.. يا جارتي لو تعلمين كيف سافرت بي مخاوفي وخيالاتي، حين وقفت أمام تلك البهائم وصغارها، لم أستفق إلا على نداءات البدوية الزاجرة الآمرة، أن أترك بهائمها وآتي إليها. تبعتها إلى غرفتها وخطواتي خوفًا يطأ الحصباء تربك صمت المكان. كنت أدنو من الباب الخشبي ذي الدفتين، وعتمة الداخل تقف سافرة في وجه الشمس.

وقبل أن أعتلي العتبات الثلاث شممتُ رائحة تمد أذرعتها من داخل الغرفة، عشب كريه ممزوج بطيب يشبه طيب الجدات، وقهوة، وهال.

الغرفة من الداخل خفيضة، قد صفت وسائد على

حيطانها، وأحيطت بحشايا مهترئة ملونة بالأحمر الناري والأصفر.

ناولتني البدوية فنجان قهوة بعد أن ابتسمت، مبدية وجهًا حادًّا قُدّت ملامحه من الصحراء، وجه لا يكف عن الترحيب. ترحب بضيفتها الغريبة الباحثة عن أمل أشبه بثمار كمأ ينبت فجأة بين رمال الأيام. شكوت لها ما بي وحالي ومآلي.

كانت منصتة تكتفي بهز رأسها وخير.. خير.. هينة.. هينة. أخبرتني (أن علاجك ـ بإذن الله ـ الكي). وأنها لا تأخذ مالًا عليه، هي تعلمت من خبرة زوجها ـ رحمة الله عليه ـ حيث إنها حين تزوجته تأخرت عن الإنجاب، وكان زوجها يطبب البدو أينما ارتحل، فقام بكيها، ثم أتاها تلك الليلة. وما أن مرّت تسعة أشهر حتى ولدت ولدها البكر. فتعلّمت من زوجها فن الطب.

كانت إذا أقبل من رحلته لجمع الأعشاب لا تكف عن سؤاله لكل عشبة فيما تستخدم وكيف تستخدم. تنظف الأعشاب، تنقيها ثم تدقها ربما تشوي بعضها، أو تغلي بعضها، أو تجففها تحت الشمس، تجمعها في صناديق خشب، أو جرابات جلدية.

كانت تتحدث البدوية، وعيني مصوّبة إلى موقد قد فرش سطحه جمر أحمر، يسترخي فوقه ملقط أسود، ويتناثر فوق الموقد مسامير متفاوتة الطول والعرض والرؤوس. بردت أطرافي وتيبّست، تعرّق وجهي، خُنق صوتي، حرارة الجمر تشوي وجهي وترعبني.

فكّرتُ بل قررتُ الهرب، لكن كان داخلي شيء يضغط على كتفي، يشدّني ويقيدني إلى الأرض، ما زالت أم صخر تشرب فنجانها مطمئنة متمهلة.. رشفت رشفة مطوّلة، ثم غمسته بنشاط داخل طاسة مملوءة ماء، فارتجت وصرصرت فناجين مشجّرة ملوّنة.

أشارت إلي أن أرفع ملابسي، وأكشف عن بطني.. جسّت سرّي، ثم أدخلت فيه سبابتها الضخمة، تحسّست فوق سرتي وحولها، جانبي بطني قرب عظمة الحوض.

ثم قالت: «بكِ بعج، ورحمك مائل».

تركتني عارية تتشاغل بتقليب موقدها الجالس قربها.. شعرت بأن حرارة الجمر تستعر، شممت رائحة الرماد تعربد.. أمرتني أن أنظر إلى الجدار. وما أن التفت ناحية الجدار حتى طعن بطني ألم

خاطف، وسياط الحرارة تجلدني على سرّتي. شهقت وأغمضت عيني.

مزدحمة أنا والمكان بالعتمة الصاخبة، روائح غريبة، صلصلات أساور البدوية وحليها، طقطقات الفحم، وشهقاتي التي تعبرني.

فتحت عيني على يد سمراء متجعدة، وملقط يعض مسمارًا أحمر الرأس يبتعد عن جسدي.

أشارت إلي أن أنهض، ثم تشاغلت بموقدها وقد بدا على وجهها ملامح الهدوء والرضا عن عمل أنجزته بنجاح ومهارة. دسست في جيبها مالًا لا أعلم كم هو! فتألّمي أكبر من أن أفتش في محفظتي، وأعد نقودي.

ثم مدّت لي مبخرة خشبية يتطاير منها دخان كثيف. قرّبتها من صدري ثم أعادتها، وخرجتُ مسرعة، ولم ألتفت إلى حظيرة حيواناتها الصاخبة.

أظنك عرفت الآن سر وشمي حول سرتي! لكن هناك ثانٍ أسفل ظهري، قد ورّطتني أمي به!

فقد اصطحبتني دون علم زوجي إلى عجوز اسمها أم شمسان، حضرت أمي إلى منزلي وقت غياب زكريا ثم استأجرت تاكسي إلى حي عشوائي يزدحم

بالمهجرين. متاهات الأزقة التهمت التاكسي، احتشدت البيوت من حوله متكئة بعضها على بعض، الغربان السود تقف فوق أعمدة الإنارة وخزانات المياه، والأرصفة حشرت أطفالًا حفاة، وأمهاتٍ يحملن على رؤوسهن بقجًا، وصواني واسعة، يشددن إلى ظهورهن أبناءهنّ.

محال تبيع أي شيء ولا شيء، وأكوام الزبالة المهترئة المنبوشة، ومياه تسيل فوق الأرصفة.

تملّكني الرعب فأحكمت قفل نوافذ السيارة، التصقت بأمي، التي تدفعني دائمًا إلى عوالم غريبة بدلًا من أن تحنو عليّ وتتركني وشأني؛ لأصنع حياتي بنفسي. ما أن تورّطني على الفور حتى تنسحب لأواجه بمفردي قدري الذي تبذره الأيام.

ما أن نزلنا من السيارة، وأقبلنا على العمارة ذات المدخل المعتم، حتى فاحت منه رائحة مكتومة، وبول قطط. تجاوزت الدور الأول، وبلاطات الدرج تطقطق مبقعة ببصقات صفر، وحشرات تدب هرعة إلى الأركان. وصلنا إلى شقة أم شمسان. كان يتمدد أسفل بابها هر عجوز، لم يكترث لوجودنا. نفخ الهواء الهابط من أعلى السلم زجاجة المصباح المتدلي، فتأرجح ضوؤه على الأرض والحيطان.

طرقت أمي الباب، ثم سمعنا خشخشة نعل يقبل من الداخل، يرافقه قرع رقيق.

أظهر الباب جسد عجوز قصيرة القامة هزيلة تتكئ على عكازها. تنتعل نعلًا بلاستيكيًا وتلبس جوربًا من الصوف، وجلبابًا فيه من كل لون قطرة، واسعة الفم أبنوسية الملامح، تعصب رأسها. بادرتها أمي تسألها عن شقة أم شمسان؟ أجابت بابتسامة من فمها الأدرد: أنا أم شمسان.

رحبت بنا بلهجة يغلب عليها الشأشأة. دخلنا خلفها إلى حجرة خالية. فرشت بسجادة مهترئة الأهداب، تحتل ثلثيها، وعند الحائط حاشية إسفنجية. ويعلوها نافذة ذات إطار خشبي يقسمها مستطيلين. ذات زجاج مثلج منقوش معينات دقيقة. جلسنا على الأرض فوق حاشية مهترئة، ثم اندفعت أمي تشرح لها عني. كانت العجوز تسأل، وصوتها يفرقع قافات قوية، وحفيف شينات طويلة، وكلمات قلبت كل عين إلى ألف. لم أفهم شيئًا ولم أستوعب منها شيئًا. وحين أدركت العجوز أني لم أستطع فهمها، أشارت إلي أن أستلقي على الحاشية.

تمددتُ على ظهري. أنظر إلى السقف المقشر، الذي انتفخت أركانه بالرطوبة. وإلى المروحة السماوية

اللون التي تتأرجح كسولة في سقف الغرفة. واللمعة المنطفئة فيها. رأيت طرف دولاب بني تكسوه فروميكا لامعة مثلمة الزوايا.

ودون استئذان كشفت عن بطني، راحت تجسّه بأناملها العظمية، متجعدة المفاصل، تتمتم بفمها الأدرد، ثم نهضت إلى الدولاب، فأخرجت منه صندوقًا خشبيًا قديمًا، متوسط الحجم، وضعته إلى جانبها. لم يستطع نظري التسلل داخل الصندوق لأرى ما حوى. لكن أنامل أم شمسان العظمية قد أدهشتني مما تستخرجه!

أخرجت فنجانًا فارغًا، ثم ركوة قهوة، فزجاجة فيها سائل قاتم اللون.

قالت إنه زيت زيتون ممزوج بزيت سمسم. صبّت منه في الركوة، وغادرت الغرفة. تبادلت مع أمي نظرة خائفة! نظرة ترغب في مغادرة المكان.. وما هي إلّا دقيقة حتى عادت أم شمسان وبيدها الركوة. سكبت الزيت في الفنجان الفارغ، ثم غطست أناملها المتجعدة فيه، تزامنًا مع تدليكها لبطني، ومع انتشار رائحة الزيت شعرت بالدفء يتمدد فوق سرّتي، وعضلات بطني تسترخي. أردد بصري بين وجهها الأبنوسي والسقف

المقشر الطلاء، والإنارة التي ألصقت بشكل مائل على السقف.

كانت أصابعها تعجن بطني، تتراخى وتشتد، تقسو وتلين، تدغدغ وتؤلم، ثم أمرتني أن أقف إلى جانب الحائط فوقفت، وقد نزعت عني فستاني. فأمرتني بأن أقوم بحركة غريبة.

نظرت إلى وجه أمي فسدّدت لي نظرة أن أنصاع لأم شمسان. وقفت متكئة على الحائط، ولكن بشكل بهلواني مقلوب. قدمي إلى الأعلى تستند إلى الحائط ورأسي يتدلى بين ذراعي. جسدي كله كان يقف على يدي، ودمي يدلق داخل جمجمتي، شعرت بمدى قوة جاذبية الأرض لي. خائفة وجلة، وتعليلات أم شمسان لم تزدني إلَّا اضطرابًا. زعمت أن هذه الوضعية تجعل الدم يتحرك.

راحت تدلّك ظهري وبطني، ثم أمرتني أن أستلقي على ظهري. شعرتُ بالراحة، فقد تحررت من هذه الحركة البهلوانية الغريبة.

ثم قالت لأمي من وراء ظهري: سأعمل لها حجامة! كم كنت أتمنى أن أسرق نظرة أخيرة على وجه أمي، وهي تشاهد كيف أن طاعتي العمياء تفعل بي

هكذا. استخرجت أم شمسان أكوابًا، ثم وضعتها فوق ظهري.

تسللت البرودة من فوهات معدنية تحاصر عمودي الفقري. بقيت هكذا حتى عادت أم شمسان وقد سبقها رائحة كيروسين. رفعت الكوب الأول وأدخلت تحته شيئًا حارًّا، سريعًا كتمته، شممت رائحة احتراق فتيل قماش. كان الكوب يمتص جلدي، ولكأنّ ظهري كله يريد أن ينحشر داخل تجويف الكوب. فعلت هذا في أربعة مواضع.

بعدها قامت وأوقفتني، أتت بقطعة قماش عريضة، وفتلتها حتى غدت حبلًا صلبًا، شدّت وثاق خاصرتي؛ حتى شعرت بأنها ستقسمني قسمين. أمرتني أن لا أفك هذا الحبل مدة ثلاثة أيام، ولا يمسني زوجي.

ثم انصرفتُ مترنحة من أوجاعي. وما أن أوصلتني أمي إلى البيت حتى قررتُ قطع هذا الوثاق.

ـ آه.. يا جارة كانت سارة في كل مرة تعود إليَّ من عند العجائز تلفّها هالة كثيفة من الروائح! خليطٌ غامضٌ ربما بخور رخيص، وقهوة وهال، وعبير أعشاب غريبة عالقة في ملابسها وشعرها. لا أعلم كيف تسيطر عليها أمها، وهي المتعلّمة؟!

لست أعلم ما هو ذاك المفتاح الخفي الذي تملكه أمّها! يكفيها زيارة خاطفة فقط فتتغير قناعاتها، أو مكالمة عابرة فتبدل اتجاهها.

تبذر في طريقها بذور الشفاء الموهوم عند عجائز ذبلت حواسهنّ، وقواهنّ، وعقولهنّ.

أيعقل أن آباءنا وأمهاتنا أعلم بنا؟ وأنّ ادّعاءهم أننا من أصلابهم، ومكثنا في أرحامهن يخوّلهم أن يتحكموا فينا؟؟!

كيف والحياة التي نعيشها غير الحياة التي عاشوها؟ والمعرفة التي حصلنا عليها تغلب على حجم تجربتهم، والحكمة التي يتشدقون بها. يا جارة قد يكون الانسياق خلفهم مهلكة لنا.

صدقيني.. صدقيني. بأيّ حق يخوّلهم أن يحملونا على أفكارهم، ويكبّلوا حيواتنا بسخافاتهم. لا حق لهم، كما أنهم ليسوا المتفضّلين ابتداءً بإيجادنا على هذه الأرض. ولا يتذرعون بتسعة أشهر حمل وكدح. فالفعل الجنسي البشري هو ذاته الذي تمارسه أتفه حشرة في جحرها النتن، وأقذر حيوان يفعله وهو مغمور داخل مستنقع من الوحل.

موهومة لو تفكرين بمنطق «السلف والدين»؛

لأنّك رعيتهم في صغرهم فسيرعوك عند هرمك. هذا كله وهم يغلف غريزة التملك فينا! ببساطة ترعينهم لأنك تريدين أن تكوني أمًّا!! وتعيشي كل مرحلة من مراحل عمر الإنسان. ولو كنا نفكر بمنطق الرعاية، فمن الأفضل للإنسان حين يهرم عوده يمضي ما تبقى له من حياة داخل منتجع للعجزة. هناك رعاية طبية وصحية فائقة. هي رغبة الأمومة وحسب.

هيا يا جارة.. داهمنا الوقت، لنعد لعلّ أحد المعزّين يأتي لأداء العزاء. نهضنا وقد تركنا فوق الطاولة فنجانين لعل زبونًا غريبًا يستطيع قراءة فنجاني، وفنجان البصارة.

ـ 14 ـ

دفعت الباب، فهجم الهواء عابرًا سائر جسدي إلى صالة بيتي. ثم خطوتُ داخل الشرفة التي كانت سارة تطل منها على شوارع الحي. لفتني في الشرفة المقابلة حبل غسيل يرفرف ملونًا. كان يصطف بعناية فوقه قطع ملابس. ثلاث تيشرتات بيض، بضعة ملابس داخلية نسائية، وعشر قطع مختلفة الأحجام تبدو أنها لأطفال، أمهدة، وفساتين بنّاتية. ثم أنظر إلى حبل الغسيل المتمدد في شرفتي وقد تدلى منه بنطالي وحيدًا.

سمعت خشخشة قرب الطاولة كانت سلة مهملات التقطت منها ورقة الطلبات، كتبت بخط يد سارة. تضع الورقة والنقود، ثم تنزل السلة من الشرفة، فيضع البقال فيها متطلباتها ثم تسحبها بالحبل.

أقرأ خط سارة الأنيق، وجلبة الحي تتصاعد من الأسفل. اقتحمت الجارة عزلتي تحمل صينية صفّت فوقها فنجاني قهوة، وضعتهما على الطاولة، جلسنا

متجاورين ننظر إلى أفق المساء، نجيل البصر بين النوافذ، وصبية يصخبون أمام البقالة.

يا جارة.. استنفدت سارة وأمها كل أسلحتها في الأعشاب ووصفات العجائز. ربما لم أحدثك بعد عن تأرجح سارة البندولي بين ممرات العلم التجريبي. عن تلك الزيارة التي قسمت كل شيء بضربة واحدة.

بعد التردد إلى دور العجائز المتهالكة، قررنا الهرب من كل شيء من دوامة البحث عن دواء. لذلك مكثت فترة أحاول أن أقنعها أن تترك هذا كله، ونقوم بالخطوة الأخيرة التي نصحنا بها الأطباء.

فبمجرد أن لفظت الكلمتين أبصرت ضوء الأمل يتغشى كثافة العتمة.. أطفال، وأنابيب!

سمعنا عن مركز حكومي متخصص في أطفال الأنابيب. وعلى الفور توجهنا إليه. المفاجأة هناك أنهم رفضونا! والسبب عدم وجود واسطة. ولا سبيل إلى الواسطة إلَّا بخطاب من علية القوم، يتحمّل فيها تكلفة العلاج. أبديت لهم أني على استعداد للدفع مقدمًا لكنهم رفضوا.

قالوا: هذا النظام.. اذهب وأحضر لنا خطابًا!!

ثم أرشدونا إلى رقم فاكس لأحد الشيوخ من علية القوم! حررت خطابًا ثم بعثته، وبعد يوم أتاني الرد عبر الهاتف أن اذهب إلى المركز، وستجد بهذا الرقم معاملة لك تابعها. يا الله بكل بساطة، ولماذا هذا العناء؟! وكأنهم يقصرون السبل إلَّا من سبيلهم.

بعد طول انتظار دخلنا إلى الطبيب كانت حجرته هذه المرة مختلفة عن كل حجرات الأطباء الذين زرناهم. هذه المرة خلت حجرته من تشريح للأعضاء التناسلية، ومن لوحات زيتية لأمهات يونانيات ذوات أثداء كبيرة. لا شهادات علمية، ولا آيات قرآنية كريمة معلّقة. كان الحائط الذي خلف الطبيب يزدحم بصور أطفال رضّع باكين أو مبتسمين، وتوقيعات على دروع من أطفال بلغت أعمارهم سن الدراسة يبعثون بها إلى الطبيب في عيد ميلاده أو ميلادهم. أيضًا على الحائط براويز وإطارات كتب فيها عبارات:

«نشكر الله، ثم ندعو لك بالحب. الإهداء: والدا الطفلة دعاء»..

«شكرًا للرب الذي وهب لنا طبيبًا مثلك.. أم منى»..

«العالم العظيم الدكتور الحاذق حمد، نحن سنظل مدينين لك طول العمر.. أم وأبو الطفلة فرح»..

كان الطبيب حمد كهلًا مخضب الشارب بالبياض، دقيق الكتفين، لم يكن يرتدي بالطو أبيض، بل زي العمليات الأخضر. أسائل نفسي: لماذا هذه الألوان تحديدًا؟ لماذا الأبيض، والأبيض شحوب؟ ولماذا الأخضر؟ أهو دلالة على خضرة الحياة المرتقبة للمريض بعد العملية؟!

هذه المرة لم يكشف على سارة، اكتفى بطرح أسئلة، ثم تفريغها في استمارة، وأعطانا مجموعة من التحاليل بعدما قرأ الملف الطبي الذي أحضرناه. فرغنا من التحاليل والإشاعات، عدنا إليه لم يكثر الحديث كان مباشرًا.

أخبرنا أن كل الحلول المتاحة انتهت. ولأنكم تأخّرتم كثيرًا، وحتى نستدرك العمر المتبقي من إخصاب سارة، فسنجري أطفال أنابيب.

استعدت سارة للعملية بجرعات حقن تشابه تلك التي أجريناها بالسابق. حقن تحضيرية لموعد معلوم. هذه المحاولة كنا نتعامل معها بكل بلادة، بشكل آلي خاضع لأوامر الطبيب. ومن أين نأتي بالأمل، وقد تحوّلت أحاسيسنا إلى صور أشعة باردة. وامتصتها أنابيب المختبرات حتى آخر قطرة فينا. ها هو يترنح بين ممرات المستشفيات مهتكًا على أسرة الكشف.

قد تبخرت كل جرعات مورفين الأمل الذي نحقنه داخل أوردتنا، ابتداءً من جرعة مورفين على شكل ابتسامة، أو جرعة أخرى يهبها لنا جلوس طويل أمام البحر، وجرعة ثالثة تبعث الأمل فينا حين نتشارك في مقعد انتظار، قد يطل علينا من بين رفوف صيدلية تزدحم بالأدوية، ولربما سفر سياحي بعدما تضيق الأرض ومن عليها بآمالنا.

ها نحن اليوم تضخم الوجع فينا، وغدت قلوبنا منهكة لا تنعشها جرعات مورفين الأمل!.

مخطئ مَن يظن أنه ليس إلَّا جرعة نحقن أنفسنا بها. ربما الأمل بوصلة نعيد توجيه مؤشرها مرارًا حتى نستعيد قدرة السير. نتألم ولا نملك غير الأمل وتوالي الخطى. كان الطبيب حمد يتابع عبر الأشعة نمو بويضات سارة، ومدى تأثير خطة علاجه وجرعاته فيها. كانت صغيرة جدًّا؛ لذلك قرر أن يزيد جرعة المنشطات، واستمر في المتابعة حتى قال ذات مرة غدًا تأتوني..

صباحًا كنا مطمئنين نستنشق أريج الأماني مع شروق الشمس المتراقص خلف النوافذ. التهمت على عجل إفطاري. كانت الشوارع تتثاءب، والميادين

كسولة، حتى مدخل المستشفى كان هادئًا إلّا من عاملات النظافة يتخافتن هنا وهناك، وتزكم الأنوف رائحة المنظّفات والمعقمّات. وكل المقاعد، وحجر الانتظار تنتظر بلهفة قطعان الموجوعين. أرشدنا مكتب التنويم إلى غرفة خُصصت لسارة، وضعنا أمتعتنا. أتت طبيبة قصيرة القامة، تتمدد على وجهها ابتسامة صباحية عريضة. قامت بتدوين في الملف الطبي معلومات أولية عني، وعن سارة، ثم طلبت منا توقيع تعهد خطّي يخوّلهم إجراء العملية، وأنني أعترف بالطفل الذي سيخلق نتيجة لهذه التقنية العلاجية، وأنها طريقة قانونية شرعية، ولا يحق لي أن أشكك فيها!!

لا أخفيكِ أصابتني الرهبة حين كان الإقرار بين يدي، لم أكن أتوقع أنه بهذه الصرامة، فقد تعوّدت أن أذهب إلى الطبيب دون أي أعباء تقع عليَّ، بل ألقيها كلها على كاهله، أتردد إليه بشكل عفوي روتيني، وأقصى شيء قمت به هو إقرار إجراء عملية الدوالي، ولم يترتب عليها شيء يتبع فعلها.

الأمر هنا مختلف، أقر أن العملية لن تجرى على جسدي. سيترتب على هذا طفل ينسب إلي يحمل اسمي!

ما الذي يثبت لي أن هذا الطفل الذي ينمو في المختبر هو ابني؟

أليس واردًا حدوث أن أحد حيواناتي المنوية قد تلتصق ببويضة غريبة؟! ثم مَن ذا الذي يقدر على انتزاع نزعة الشر والطمع إن هي استحكمت في قلب الطبيب؟! فكل قسم الأطباء وميثاقهم الأخلاقي لن يردعه إن أراد الوصول إلى مجد جيبه، والنجاح بأقصر وأقذر طريق.

ومَن ذا الذي سيقنعني أن ذلك الفني الكسول في المختبر لا يتراخى عن أداء عمله بدقة. ليسوا ملائكة مطهرين.

حتى وإن سلّمنا بانتفاء نوازع الشر لمصلحة المهنية الطبية، أين نذهب من احتمالات الخطأ الطبي؟!

وكأني أبصر الملامح الحادّة لذلك الرضيع العربيّ الذي استلمته أسرة تركية، ثم رحلت به إلى الأرض لا تشبهه، فنبت فيها كنبتة شيطانية أوراقها من غياب.

كل خوفي أن يكون قدرنا أن نغرس فسيلًا في غير أرضنا! وعندها حتى لو عاد الفسيل إلى حقله

الأصلي سيبقى مكانه ندبة غائرة جافة، ولن يفيد تشبث الجذور الحقيقية بزوايا الندبة المعتمة.

سذاجة حسن الظن لن تغفر سفح مشاعر الأبوة والأمومة على قارعة العمر. لكننا لا نملك غير المضي في طريق اللاعودة، والأماني غيمات تظللنا علّها تهطل فوق أرضنا اليباب المتلهفة على غريزة الأبناء.

تناولت القلم وقبل أن أجره على الورقة البيضاء المنتظرة تعانقت أعيننا، كانت نظرات ليست مستوثقة بعرى اليقين، ولا هي التي تملك خيار العودة. تمرغت ريشة قلمي في ذيل الإقرار مؤذنة الركض عبر منعطف خطر، عندما خططت توقيعي رأيت الأمل يحبو داخل عيني سارة جنينين مكوّرين يبتسمان. ثم ارتدت ثوب العمليات الرمادي، فاستلقت فوق السرير تنتظر ساعة الصفر والتخلّق!

كم هي لحظات عظيمة ومرعبة أن تنتظر مخلوقًا يتكوّن من كل خلية فيك تحت متابعة شاشات تلفزيونية لا روح فيها، ولا إحساس لها! دفعت الباب ممرضتان متشابهتان كتوأمين ترتديان الزي ذاته، ولهما البسمة ذاتها، وتصفيفة الشعر ذاتها، وقبل أن تغادر معهما سارة نظرت إليّ بحدقتين سوداوين نظرة مكحّلة بالحذر

أن لا تصحو من البنج إلى الأبد، تهمس وصيتها الأخيرة أن سامحني!.

دُفع سريرها خارج الغرفة، كانت صرصرات عجلاته تبتعد متسارعة عبر الممر. لم تعد تحاصرني نظراتها، وإنما تجدد الحصار عليّ بشكل آخر!

كان الصمت يخنق أذني، صوته يشلّني، يخلّ توازني.

أذرع الغرفة الخالية، وبيدي قنينة بذرة القدر القادم. أقلّبها يمنة ويسرة، أقذفها إلى الأعلى، ثم أمسكها كلاعب الكريات، أقذف الخوف، وأمسك بالأماني، أعبث بالأقدار المحشورة داخل القنينة، ربما قدري أن أبقى أطارد سراب دخان، أو تلد تلك القناني عمرًا جديدًا يهب لنا امتدادًا، ويحوّل الحياة إلى معنى نرعاه ونرضعه.

انتشلني رنين هاتف يطلب مني أن أتعجّل، فالجميع في غرفة العمليات ينتظر مطر جسدي. مشددًا على أن لا أترك القنينة مكشوفة، أو بمكان بارد لفترة طويلة، بل أضعها داخل جيبي لصق قلبي؛ حتى لا تموت الحيوانات المنوية، ويفوت تلك الكائنات فرصة استنشاق رائحة الحياة.

سحبت لفافة مناديل ورقية، كانت المرآة تستنسخ حركاتي وتحاصرني، أشفقت على وجهي فيها. كان جبيني ينزّ عرقًا وحبات تركض متحدرة عبر خدي الأيسر، وعروق رقبتي تنبض لاهثة، ليتها تسحب مني كما تسحب عينة الدم مجرد شكة إبرة والسلام، ومن أين تهب الصحراء الجرداء الماء للعابر إن توقفت السماء عن البكاء؟! مع علم العابر ويقينه أن الماء مستقر داخل جوفها، يخشى الخروج والفناء.

ماء الصحراء يحذق قانونها، يدرك أن الوفرة تعني التلاشي، وأن سر حياته هو البقاء على حد الكفاف مستقرًا داخل عتمة الأرض.

غير أن القابع بين عروقي ونخاع عظمي ليس ماء الصحراء، أنا العابر، إني أنزح ابني الذي أنتظره وأستجدي خروجه من عروقي.

غدوت رجلًا وجلًا أن يسفح بلا قيمة، يهرب ماؤه بلا معنى، يحاذر أن يتدفق إلى الخارج فتنتهكه الأيدي، وأدوات الطبيب.

ربما فكّر ثم قدّر أنه مهين! والمهين لا يملك غير الريبة والفرار من المواجهة!

وحين يئستُ من استسقاء كل خلية فيَّ، دفعت الباب هاربًا إلى أين؟ لست أدري! أين؟، ولمن؟! وقع بصري على سكينة تعتلي هرم فواكه. رفعتها نصب وجهي، تأمّلتها، كانت لامعة، وشفرتها شهية متحفّزة للحزّ والجزّ، طافت حول رأسي فكرة مجنونة أن أقطع شريان الرسغ، وأنهي هذه المهزلة. وحين أغيب بالتأكيد سيرسلون ممرضة مشحونة بكل غضب الفريق الطبي وحنقه لتجدني مضرجًا بدمي، متشبثًا بقنينة مترعة دمًا أحمر، بدل من ذاك الأبيض الحليبي المهين الشحيح، المختبئ في كل زوايا جسدي باستهتار وخذلان.

طافت الفكرة في رأسي سبع مرات تحمل بيدها سكينة الفاكهة اللامعة، وتبتسم بهدوء مبدية أنيابها المتعطشة إلى دمي. ضغطت بالسكين، ثم سحبتها سريعًا إلى الأسفل على حبة البرتقال الكبيرة، فانبجس دمها ينز فوق الطبق. أضغط وتقطع السكين بتعرج وارتباك. أحز بها فتسقط شظايا البرتقال عشوائية الأحجام والأشكال. ألقيتها ثم نهضت إلى النافذة، كان الطبق يرتجف بيدي. مضغت مثلثًا صغيرًا على مهل، لعل هذا المضغ المتباطئ يعيد الهدوء والسكينة إلى نفسي المخذولة.

ألوكها بفمي، أجتر تساؤلًا كل هذه السيارات الراكضة أسفل النافذة: إلى أين تذهب؟

هل فيها زوجان يتجهان إلى هذا المركز؟!

حدسي يخبرني أن كل نوافذ هذا المركز يطل منها رجالٌ يمضغون مثلثات الفاكهة ببطء مثلي. فرغ الطبق، وسكن ارتعاش جسدي، ثم استسقيته فأغاثني ديمة الحياة وبداخلي قرار لا رجعة فيه، إني لن أكرر هذا ما عشت.

يا جارة.. شيء مرهق للروح، ولكأنك تطلب الحلم أثناء تحفز يقظتك.

بعد مضي ثلاثة أيام من عملية سحب البويضات وتلقيحها في المعمل، ذهبنا إلى المركز كي يعيد الطبيب الأجنة داخل رحم سارة. لكن هذه المرة لم يكن فيها تبنيج، ولا عينة، ولا تعهّد خطّي. كل ما هناك هو أن البويضات الثلاث، والحيوانات المنوية الثلاث تم تلقيحها مختبريًا!.

تخيّلي أن ثلاث بويضات يخترقهنّ ثلاثة حيوانات منوية خارج جوف أنثى! والأغرب حين انتهى الطبيب قال: عمر هذه الأجنة أسبوعان!

كيف يحدث هذا؟ وفي الواقع لم يمر على خروجها من جسدي، وجسد سارة غير ثلاثة أيام معدودات!

غادرنا المركز، ويد سارة متشبثة بصورة تتوهج تحت سلاسل الشمس، كانت بحجم راحة الكف، سوداء قاتمة لها إطار أبيض نحيل، كتب في زاوية إطارها التاريخ، الساعة، الدقيقة، والثانية.

كان يسبح داخل الصورة السوداء ثلاث نقاط بيض، قالوا إنها نطف مغروسة على جدار الرحم.

إنها ثلاث نطف بيض كنجوم معلّقة على ستر ليل العمر الحالك.

لم أستطع توصيف مشاعري نحوها. أأنظر إليها على أنها أبنائي؟ لكن كيف وهي جمادات لا روح فيها؟!

لا أشعر بشيء يربطني نحو إنسان، أو ما قبل إنسان لم تدب دمائي في عروقه بعد، ولم يرث صفات جيناتي، ولم يتقاسم ملامحي مع أمه. أشبه بكائنات هلامية حيوانية لا روح فيها. إن مسألة عمرها الذي أحرق الزمن، جعلني أفكّر هكذا. كيف للعلم أن يصنع هذا، ويتخطّى دوران الكرة الأرضية لبضعة أسابيع،

على الرغم من أن هذا المخلوق لم يمضِ على وجوده عليها غير اثنتين وسبعين ساعة!.

لو قدّر الله سبحانه لهذه النطف الثلاث الحياة، فستكون مختلفة عن أبويها اللذين وُلدا وعاشا على هذه الأرض شهودًا على دورانها. إنهم ثلاثة سبقوا عجلة الزمن. ولذلك سيكونون مختلفين عنّا تمامًا. هم أبناء العلم وأربابه.

باستطاعته أن يحميهم بخلافنا نحن الأبوين الطبيعيين. العلم قادر أن يجنّبهم أمراضًا ربما سترافقهم على مدى حياتهم بتعديل جيني لهم. إن أباهم العلم قادر على اختيار مصيرهم، فيخرجهم سليمي الحواس، أشداء البنية، وإن بدا له غير هذا في أبنائه أجهضهم وتخلص من بشر سيرهقون البشرية بعجزهم، ويثقلون كاهله وعقله ليبتكر لهم حلولًا تعينهم على هذه الحياة.

كم هو العلم رحيم!..

كنت كلّما نظرت إلى بطن سارة أسائل نفسي: أحق يمكث داخله بشر!! لكأني أعيد اكتشاف العالم. شعرت بأنهم أول الهابطين على الأرض، ولكن لم يهبطوا من الجنّة، بل قادمون من سعير اليأس، وجحيم الانتظار. متسللين من طرف ملاقط ومجاهر مختبرية.

أنظر عبر الأشعة إلى أولئك الثلاثة، نزلاء جوفها الذين يعيشون في عمق عالمنا وعالمهم أحياء دون صوت، ولا جلبة.

كنا جميعنا خمستنا ننظر بعضنا إلى بعض، إلا أننا لا نستطيع التواصل والوصول إلى اللغة مشتركة. نجحت سارة في خلق قناة توصل إليهم إحساسها عبر نبض دمها. وبقيت أنا المنفصل تمامًا عنهم، عاجزًا عن المشاركة في خلقهم.

كنت أفكّر أن يقولوا ذات يوم أنت لم تقدم لنا شيئًا بخلاف أمنا التي تحملت وجعنا تسعة أشهر. أنا وسارة أصبحنا نفكر في الغد!! ولكن من زاوية جديدة علينا لم يعد همنا الحمل. سارة خصصت غرفة للأطفال، وأثّثتها ثلاثة أسرة نوم، ودهنتها بطلاء طفولي زاهٍ، وضعت فيها ثلاث طاولات للمذاكرة، ثلاثة خزانات ملابس، وفرشت الأرض إسفنجًا حتى إذا سقطوا لا يمسهم أذى. لكنها احتارت في الملابس! أتشتري ملابس لصبية، أم بنات؟! كم تتمنى أن تعرف مَن هم الثلاثة الذين يسكنون رحمها؟! كيف هي ملامحهم؟ وبنية أجسامهم؟!

هداها تفكيرها أن تشتري ملابس لأولاد وبنات.

تبحث في النت عند أي طبيب ستتابع حملها! تسأل صويحباتها عن أفضل الأطباء، والمستشفيات، ومميزات العناية فيها. تمادت بها الأماني إلى أن أصبحت تبحث عن تصاميم تزين غرفتها في المستشفى، وتتناقش مع أمها حول الأعشاب التي لابد أن تتناولها النفساء.

اتخذت سارة ألبومًا تحفظ فيه بعد كل زيارة للطبيب نسخة من الأشعة التلفزيونية. كان ذلك الألبوم يؤرخ لمراحل حياتهم من بقعة بيضاء تلتصق بحائط أسود في صورة إلى أن تضخمت تلك البقعة يومًا بعد يوم، فتسلل إليها النبض.

كل زيارة للطبيب كان يطمئننا إلى نبض الأجنة. يا الله كيف لهذه المخلوقات الصغيرة نبض، وكيف تدب فيها الحياة؟!

هذا الطور من الخلق جعلني أستشعر أنهم يعرفوننا، بل ذُهلت سارة حين أخبرتها أن أبناءها الثلاثة يستنشقون رائحتها، فقد قرأت في بحث أن أول حاسة تعمل لدى الإنسان هي حاسة الشم! أصبحت تتفاخرعليَّ بأن أبناءها يتغذون رائحة أمهم، ولم يتعرفوا إلى رائحة أبيهم. إن الأجنة يشعرون بالحضن الذي لا

يفارقهم، وبالدفء الذي يرعاهم، ملتصقون برائحة أمهم، والنبض الذي يمنحهم الغذاء والحياة والدفء. لذلك يبكي الطفل حين يطل برأسه متشممًا عالمنا، فاقدًا كل عالمه الصغير الحنون الآمن.

إنها الرائحة تفعل هذا وأكثر.

كانت سارة تخرج ألبوم الصور وتغرق في تأمّل يفيض منه نظرات لأول مرة أشاهدها! يسكن عينيها نظرات مترعة أمومة. ثم تضم إلى صدرها قبل النوم ألبوم الصور، وتقبّله متحسّسة بطنها خبء أجنتها.

كنّا كل مرة نقابل طبيبها تنبت البسمة على شفتيه، وانتشاء الفخر لأنه أنجز ما طُلب منه.

إلّا أنا ذات نهار ذهبنا إلى موعد اعتيادي، لكن أحالتنا سكرتيرته إلى إحدى مساعداته، على الرغم من أنه موجود في المركز. كشفت مساعدته على سارة، ثم أخبرتنا أن واحدًا من الأجنة الثلاثة سقط! وهذا أمر ممكن الحدوث في حالة ثلاثي الأجنة، ولكن التوأم الباقي وضعهما مستقر، والنبض منتظم. خشينا أن يتسرّب الأمل من جوف سارة، ولكن كلمات الطبيبة حول التوأم المتشبث أعادت لنا توازننا، ثم أضافت سارة إلى ألبومها صورة جديدة لهما، وقد غاب ثالثهم.

كانت تقلّب الألبوم تقارن بين الصور التي ضمت أجنتها الثلاثة مع هذه الصورة الأحدث. ينخرها سؤال وحيد: أيّ من الثلاثة لفظه رحمها؟! بقيت تتأرجح بين حزن والقناعة بما في بطنها.

فثمة لا يزال أمل مختبئ ينمو يومًا بعد يوم، مقتاتًا بدم أمومتها.

وفي ليلة أيقظتني قبيل الفجر! تصرخ: زكريا.. وجع يقطّع بطني. أخذتها إلى المستشفى، عبرالطريق، وتحت أضوائه الصفر، كان وجهها يبرق وجعًا، بل كلّ منا كان الألم يثقل جسده..

عند باب الطوارئ مضوا بها فوق سرير لا ندري إلى أين المصير؟ ولكنهم يمضون ونمضي، أحدنا قد حُمل، والآخر يسعى خلفه ولا خيار. ملامحها تتفصّد عرقًا وألمًا أسودَ ينزف فوق السرير الأبيض المتحرك. تارة تنظر إليَّ وتارة تبعد وجهها وملامحها الناعمة، تغيب وتعودخلف غمامة قاتمة كالمستقبل المجهول. بعد قرابة ساعة، أو لست أعلم خرج إليَّ طبيب وجه بارد كالموت، ومن خلفه ممرضة تحمل لفافتين بيضاوين، فأخبرني أن نبض التوأم قد توقف، وقد أجرى إجهاضًا. ناولتني الممرضة جسدَي الموت

البض، ثم دخلتُ بهما إلى سارة. أشارت لي أن أضعهما فوق صدرها، وضعتُ أحدهما، ثم ضممت إليَّ الآخر، وغرقنا نقبّل كائنين كانا ينعمان برائحة أمهما، وقد استقرا في حضن أبيهما توًا.

استجمعت قواي، واستردت الطفل من سارة، ثم وضعتهما جهة القبلة. كبّرتُ أصلّي عليهما، وسارة من خلفي تنشج وتدعو.

أذّن الفجرُ فيممت بهما مسجد المقبرة، صلّى عليهما شيوخ بلحى بيض، وملائكة مجنحة، ثم وحدي مضيت إلى قبرين صغيرين، واريتهما هناك، وعدت إلى سارة، وبعد أن فاقت من المهدئات أصرّت أن لا تبقى في المستشفى، تريد زيارة قبر طفليها.

ذهبنا إلى المقبرة التي تمنع أن تزور الأمهات قبور أبنائها. لكن سارة وقفت خلف السور الحديدي تنظر إلى شواهد قبور صغيرة، مصفوفة فوق المدى الترابي أمامها، ومن فوق المقبرة سرب عصافير، وحمام تطوف وتحتشد.

سمعتها تدعو وتحادث نفسها: كيف تتحوّل تلك الكائنات الضعيفة التي كانت تنبض، ويستنبت لها يومًا بعد يوم أعضاء. غيضت رحمي وجفت، وانحسرت عن

جثتين توأمين، بقدمين حسيرتين، وشبه أيدٍ تلوّح بالوداع.

لا أريد تغيير ديكورات الغرفة، أريدها كما هي أرجوك لا تناقشني، ولا تظن أنك حين تطمس معالم توأمي أنكِ بهذا استطعت محوهما من داخلي.

هما جزء مني لا ينفصل، هما تغذيا بدمي ونبضي، وكانت رحمي بيتهما الصغير، لا تظن أن الموت فرقنا، وأن صلاتي عليهما في كفنيهما الأبيضين كانت حدًّا فاصلًا بيننا.

ستبقى روحاهما هنا غيمات تسكن حجرتهما، ولن أتصدّق بملابسهما، ستظل معطرة معلّقة داخل الدولاب الأبيض؛ لأن روحيهما ستعودان ليطمئنا إليّ.

- 15 -

نهضت معي الجارة، تساعدني على تنظيف وسقي أصاصي وزهور سارة المنتشرة في كل زوايا البيت. كانت ذكرياتي تنهمر كالماء المسكوب.

أتذكر ذات ليلة تأخرت عن العودة إلى المنزل، دخلت غرفة نومنا، أشعلت الإنارة كان السرير مرتبًا، ناديتها فلم تجب! بحثت عنها في المطبخ، في دورات المياه.. لم تكن هناك!!

اعتقدت أنها خرجت مع أمها، لكن حين نظرت إلى أحذيتها المصفوفة داخل رفوف الخزانة، تأكدت أنها لم تغادر. تصلني موسيقى تنبعث ناعمة من غرفة التوأم الثلاثي الموؤود، اقتربت أكثر فتحت الباب، فارتفع عزف موسيقى من دمية كانت تحتضنها سارة، لو شاهدت كيف كانت غارقة في نومها كطفلة استهواها تقمص دور الأم.

أدركتُ حجم الظمأ الذي يسكن صحراء سارة...

كانت ثلاث دمى اشترتها عوضًا عن سقطها الثلاثي. أشعر أن بينها وبين تلك الجمادات صلة ولغة خفية، كلّما دهمها سيل الأمومة تحتضن دمية، وإذا أبصرت دمية وحيدة تجلب لها ثانية كأخ، أو أخت. دُماها الثلاث أصبحت تقاسمنا الحياة.

تجلس على المقاعد، أو تطل من خلف الستائر، وقد تلوذ بالزوايا، أو تعتلي رفوف الكتب. ولكأنها أرواح أطفال يحيطوننا من كل جانب. دمى تأكل قرب الثلاجة، ودمى ترضع مستلقية في هندولها، ربما تستقبلني في مقدمة البيت راقصة مصفقة.

حتى حين نعود من سفر على الفور تتفقد الدمى التي تركتها تحرس البيت، فتمسح الغبار عن وجوهها الباكيات الباسمات.

يا جارتي.. سأضع في عهدتك دُماها الثلاث شريطة أن توزّعي ميراثها على أول ثلاثة تشاهدينهم يحومون حول منزل سارة، ببساطة هم الذين أحبوها، ووهبت نفسها لغيابهم. لذلك هم أحق بميراثها.

بعد أن فقدنا أبناءنا التوأم كنا صامتين، وكأن كل كلام البشر لا يفيد.

كنا حائرين، وكأن كل هذه الحياة تواطأت على تركنا نسير عبر تيه لا حد له.

غرقت أنا في وحدتي أمكث ساعاتٍ طوالًا أصطاد أمام البحر. بقيت سارة على عادتها، تمضي معظم نهارها في غرفة أطفالها، والغريب أنها بقدر ما كانت هذه الغرفة تؤزّمها كانت فخًّا تنصبه للأطفال الذين يزورونها. فما أن يخطو طفل زائر داخل الغرفة حتى تنتشي سارة وتقوم بملاعبته. ولو كان رضيعًا تلبسه من تلك الملابس المعلّقة المعطرة التي تعود إلى أجنتها الموؤودة.

ذات نهار قالت: «لا يزال ثمة فرح حتى لو كان مقتطفًا، في تبسم أطفال الحي في وجهي والتلويح لي. ومرافقتهم لي بغدوي ورواحي».

لو رأيتِ كيف كانت تلك الوجوه الصغيرة تستقبلها حين تعود من السفر. ما أن يتوقف تاكسي المطار حتى تتكاثر العيون الصغيرة، والأكف البضّة لتصافح وتعانق.

يشيّعونها إلى بيتها، ثم ينصرفون ليمضوا ليلتهم تلك يحلمون بمنزل سارة، وتبقى هي طوال تلك الليلة عاكفة تزين الدار وتنظفها، تعلق الأشرطة اللامعة، زينة، بالونات تنتظر شروق الصبح لتعلن عودتها من سفرها. ينهض الصبح على غناء الأطفال في الخارج،

وتجاوب الموسيقى من دارنا. ثم تطل عليهم قديسة الطفولة من نافذتها تنثر علكًا وحلويات تتطاير فوق رؤوسهم كفراشات لامعة في صخب بريء، يقتحم الصغار درج البناية، وينتشرون داخل البيت، يغنون، يلعبون، ينفخون بالزمامير، وتتمايل مثلثات رؤوسهم الورقية. ويتقافز بينهم خيوط لولبية من أنابيب يقبض عليها الصغار.

كانت سارة تهيم كراقص صوفي، وترتفع كأنها طائر يرف هربًا من قفصه. عاقدة تصالحًا جزئيًا مع عاطفة أمومتها بأن تحيط أطفال الحي بحبها.

لكني كنت أشعر رغم هذا كله أنها في ساعة محددة من كل نهار، ينتابها حزن وتتدفق دمعًا. لم أحدثها كثيرًا، بل راقبتها لأكتشف أنها قد اعتادت بعد فقدها توأمنا الذهاب كل نهار إلى المقبرة، وقد أفلحت في أن ترشو الحارس حتى يسمح لها بالوقوف على قبر أجنّتها. وكذلك تسللها خفية إلى طبيب القلب.

إثر هذا قررتُ أن أنتشلها، فنبدأ حياة جديدة بعيدة عن كل ما يثير الحزن فينا. حياة لا تذكرنا بشيء ولا تحاصرنا بعجزٍ حياة مع أطفال لم تمتزج دماؤهم بدمائنا، ولم تنحت ملامح وجوههم من ملامحنا.

عاطفة الأمومة جعلتنا نقف مجردين من أي شيء أمام الحقيقة العارية، ونصال الأسئلة تنغرس إلى العمق.

أقنعتها أن نبحث عن أرض جديدة، وأناس مختلفين، لا يسألوننا عن ماضينا، ولا يعنيهم منا غير الحاضر الذي نقاسمهم إيّاه.

هكذا فجأة كمفاجآت الحياة العصية على توقعاتنا أراني أحمل على كتفي حقيبتي، وتجر سارة خلفها حقيبتها، حيث تركنا وراءنا كل شيء! المستشفيات، الناس، الشوارع، وطنًا لم يكتب لنا فيه الفرح، وأرضًا ضاقت بنا بما رحبت، مع أني أعتقد أنها لم ترحب بنا قط!

حزمنا أمتعتنا مخلّفين وراءنا بيتًا أُثث بالوجع، وبخذلان الأماني.

تركنا الأنوار مضاءة، والمقاعد لم تغطَّ بالملاءات، كل شيء مهمل كما هو!!

هربنا من لسعات الجمر، ومن تشريطات الحجامة.

خلّفنا أدويتي التي تحذر الاقتراب مني، عمليات تجارية يعبث بها مبضع جراح انتهازي.

تركنا كل شيء: قناني أدوية قاتمة، أقراص بيضاء شاحبة مرّة الطعم، صرار، وأعشاب، وبخور وضجيج يد الهاون التي سحقتنا تحتها.

مللنا انتظار وترقب إبر تحقن داخل أجسادنا أماني نواصيها كاذبة خاطئة.

ومن أعين أشعة عمياء تراقب مبيضًا، وأوامر الطبيب أن تقتحم حيواناتك المنوية قلعة الرحم الحصينة.

أردنا أن نرتقي بذواتنا المهتكة عن هبوطها إلى مرتبة حيوانات التجارب.

خلّفنا وراءنا حرث الأماني وانتظار براعمها. الشيء الوحيد الذي أخذناه معنا كان دمى سارة الثلاث.

أدرت قفل الباب للمرة الأخيرة. كنت أرى في وجه سارة ملامح الوداع للأرض، للهواء، ولوجوه الأطفال التي نحتت من أديم الأرض والأجداد. أطفال لهم ملامح تشابه ملامحنا. كل هذه الأرض ننتمي إليها ولا تستنسخ منا ملامحنا.

أنظر عبر نافذة الطائرة إلى ساحة مزدحمة بتصايح الموظفين تحت ضجيج المحركات، حبات العرق تنزُّ

من وجوههم.. سرب ضحكات المسافرين يغادر الحافلات.. ومشادات وإشارات تأمر بالإسراع، كل هذا المشهد كان يكرس الرحيل داخلي وداخل سارة.

ابتعد سلم الطائرة، أقفلت الأبواب، ركب الموظفون سياراتهم، وانسحبت المعدات هاربة مبتعدة عن الراحلين.

خلت الساحة من تحت جناح الطائزة تمامًا كالحياة التي نستقبلها خالية من أي شيء، بيضاء نظيفة.

انتقل ذلك العالم المليء بالإشارات إلى داخل الطائرة، تراكض الملاحون يتممون إجراءات الرحلة.

تزحف الطائرة متسارعة فوق ممرات المطار. ثم وقفت على بداية المدرج، وشحذت كل قواها، زأرت كأنما صيحة المحركات تئزُّ داخلنا، تنبعث من أعمق نقطة فينا.

ارتفعت متثاقلة، والأرض من تحتنا تنفصل عنا، ثم نبتعد وكأننا نُنزع عن الأرض نزعًا.

كانت تتصاغر تحتنا الطرقات التي ذرعناها انتظارًا ووجعًا، ومستطيلات المستشفيات تتقزم لتغدو نقطًا مجتمعة تصغر متلاشية خلف حجاب الغيم.

- 16 -

نظّفت الجارة كل فناجين القهوة، ورتبت المكان من جديد، ثم استأذنت تريد المغادرة إلى رصيفها بجانب العجوز بائع القهوة. ربّتت كتفي، ثم طلبت مني أن تحتفظ بفنجان سارة تذكارًا لقراءتها.

وما أن تلاشى صوت قفل باب بيتي، حتى تناولتُ من الرف نايي، ضممتُه إلى صدري، جثم الصمت على ركبتيه منصتًا وبعزفٍ يتردد داخلي نغمًا خفيًّا منفردًا، وترتيلًا وحيدًا في أرض مجهولة لم أنبت منها، إنما هربت إليها تمامًا كنخلة أمويّة مغتربة بين حدائق الأندلس.

هذه أيام العزاء تطوى من خلفي، والأماني سافرت على بساط السراب. مرتحلًا إلى ذكرياتي التي تعزف لحنًا تأبينيًّا متثاقلًا، فغدوتُ الجوقة، والآلات، والجمهور!

ياسارة وهبت نفسك لعاطفة الأمومة حتى فاضت

على دُماك الثلاث التي تنظر إليّ. ولقطّك الكسول المستلقي عند قدمي. أبدعت أمومتك، حيث ابتنت أمام مقدمة البناية كوخًا خشبيًّا صغيرًا يحيطه سياج محكم. ثم أسكنته زوج أرانب مع صغارها السبعة، التي لا تكف عن القفز والقرض.

وفي زاوية أخرى قريبة حوض صغير لبطة تمضي نهارها تسبح هي وفراخها. أمّا قبيل مدخل البيت فيوجد قفص فئران هومستر المرحة. كذلك هذه القطة الملونة غزيرة الشعر، تتبعك إلى كل زوايا البيت بميدليتها المتدلية، أو تتكوم في حضنك وأنت تتحدثين أمام التلفاز ليلًا، وقد تجلبها إلى فراشنا بعض ليالي الشتاء القارس.

آه يا سارة.. كل أشيائك تحاصرني! هناك على الطاولة قرب الشرفة كرات الصوف، وسنارتك الطويلة يتدلّى منها خيط أزرق ينتهي حول كنزة لم يقدّر لها أن تكتمل. كنت هنا تجلسين منفقة أيام كهولتك في غزل السنارة، تبدع أنامل أمومتك قبعات ملوّنة، وكنزات مطرّزة بزهورٍ رقيقة تهدينها لأول طفل متشرّد، لعله يتدفأ بفيضك الخلّاق.

ولم تمنحك الحياة فرصة أن تغزلي لذلك الطفل

المشرَّد، الذي تعلّقت به، و تلبسيه من حياكة أصابعك القصار.

قابلته صدفة عند مقهى! يرتدي قميصًا رسم عرقه عليه خارطة رطبة، وبنطالًا حائل اللون. الغريب أن هذا الطفل بائع الفوط، لم يكن يمسح عرقه ليحافظ على اكتمال دزينة الفوط أن تنقص أو تتلوث، فالزبون لن يشتريها لو نقصت واحدة أو اتسخت. أشارت إليه، إلّا أن النادل طرده، وحذّره من الاقتراب من المقهى، ومضايقة الزبائن. تركت سارة قهوتها ولحقت به، نادته فلم يلتفت، رفعت صوتها ولم يجب!

لحقت سارة به فأمسكته من كتفه، استدار مفجوعًا! كان الصبي يخرج أصواتًا غير متناسقة ومبهمة، أدركت أنه أصم.

أخرجت ورقة، ثم كتبت فيها ما اسمك؟ ردد النظر بين وجهها والورقة، ثم رسم داخلها عملة نقدية، اكتشفت أيضًا أنه أميّ لا يتقن الكتابة والقراءة.

احتضنته، قبّلت رأسه، ثم أمسكت بيده عائدة، وانقاد يضم إلى صدره «دزينة» الفوط أن يطيرها الهواء.

أجلسته بجانبها مسحت عرقه بمنديلها، ثم فتحت أمامه ألبوم الطلبات، أبصرت في عينيه حجم العوز

والجوع الذي يسكن جوف الصبي الأصم. رأت فيها نظرة انبهار كونه لأول مرة يجلس في مقهى، بعد أن كان يتجوّل متسللًا بين الطاولات، كان يسكن عينيه اندهاشه من كمية الطعام وألوانه وطرق تزينه، وقد استملكته الحيرة ماذا يطلب!

اختارت له على ذوقها، فالتهمَ الصبيُّ الجائعُ طبقَه. كانت سارة تنظر إليه متبسمة. أنهى طعامه ثم قام لينصرف، أمسكت به سارة مرة ثانية واصطحبته إلى بيتنا!

قالت لي: «هذا الطفل سيعيش معنا»

لم أحبّذ الفكرة كثيرًا، ولكن كعادتي تركتها وشأنها. أسكنت الطفل غرفة زائدة في البيت. لم أتقبّل فكرة تبني هذا الطفل المشرد بعد هذا العمر، ولكن سارة كانت بخلافي شعرت بأنه هبة ونافذة تطل على السماء، وسيؤنس شيخوختنا التي نعيشها وستكون لسانه الناطق ويكون لها زهرة عمرها وثمرة صبرها. بالغت بعنايته ورعايته واقتربت منه بسرعة حد الالتصاق! ذهبت به إلى الحلاق ثم إلى محل الملابس والأحذية.

طوال ذلك النهار لم يغب عن بصرها، وسرعان ما تفتقده إن اختفى فجأة. ما زالت صرختها تتردد

داخل أذني حين كنت أقرأ كتابًا فسمعت صوت صرخة. . ألقيت الكتاب!، وركضت إلى الحمام فرأيتها تضحك وفمها قد غطته رغوة معجون الأسنان والصبي يفرّش أسنانه بعنف وهستيريا، كلما زاد في التفريش ارتفعت ضحكاتها.

سارة اخترعت لها لغة تواصل مع هذا الصبي الأصم، فقد وقفت أمام المرآة وهو بجانبها، وجعلته ينظر إلى فمها وأسنانها تقارن بالإشارة بين أسنانها البيض، وأسنانه الصفر، التي تكلّس عليها الجير، ثم فرّشت أسنانها، فقلّدها، وقد راقها سلوكه. وبقيت طوال نهارها مشغولة به، حتى أنها قد غفلت عن صبية الحي الذين لم يغيبوا عن بيتنا قط.

أعدت سارة العشاء، وأجلسته بجانبها، كنت أراقب بصمت كل ما يحدث بينهما، يضحك الطفل فتضحك، يلتفت إلى النافذة فتلتفت.

حين ترى سيلان أنفه تناوله المنديل، وتشير إلى أنفها، فيقلّد حركاتها. امتدت يده إلى الطعام بفوضى، وقليل تهذيب، نظرت إليها مستهجنًا، فتجاهلتني، ثم التقطت شوكته، وسكينه، وأمسكت بيده تعلّمه كيف يقطّع، ويمضغ ببطء.

كانت تبسط هيمنتها على الطفل، تريد أن تعلّمه وتهذّبه، والطفل تارة ينقاد لها طيّعًا، وتارة يمانعها.

الغريب أنه كلّما حاولت التخلّص من دزينة فوطه، يغضب متشبثًا بها أكثر، يأخذها معه إلى السرير وإلى المطبخ حتى الحمام يدخلها معه!

وحين حانت ساعة النوم، رأيت الصبي متوترًا قلقًا، وسارة تحتضنه وهو يصرخ في وجهها بأصوات منفّرة، يريد أن يقول شيئًا، لكن هذه المرة عجزت عن فهم ما يريد قوله لها!. اقترحت عليها أن أبيت في مكتبتي لعلّه يريد أن ينام في حضنها. لكن الصبي كان ينظر إلى الباب دومًا، ولكأنه يرتقب قدوم أحد.

غفلت عنه سارة، فخرج خارج المنزل، ثم لحقت به وأرجعته. كلّما تقدّم الليل كان الطفل يصرخ أكثر، ويبكي، يريد الخروج. هد البكاء جسّد الطفل فحملته إلى سريره...

حين استيقظت صباح الغد، ذهبت إلى غرفته، لم يكن مستلقيًا على السرير، بحثت في الحمام فلم تجده. في أرجاء المنزل كافة لم تعثر عليه. رأت خيط ضوء يتسلل من باب البيت الموارب، فاندفعت كالمجنونة حول المنزل لكنها لم تعثر عليه.

أصبحت تسعى إلى كل مكان قد وُجدا معًا فيه: المقهى، محل الملابس، الحلّاق، الشاطئ، كل مكان خطر على بالها، لكنها عادت إلى المنزل كعادتها كل مساء وحيدة.

ألقت جسدها وسط الصالة على الأرض تجهش بالبكاء. اقتربتُ منها، ثم أجلستها. تعابير وجهها وارتعاشة صدرها أعادتني إلى أول ليلة بكت فيها سارة أمامي، واشتبكت فيها معي قبل سنوات طويلة.

العيون تمطر سيلًا من دموع، والأنفاس تقطعها زفرات طويلة حارقة، ووجهها قد عبث به العمر. الخدان زال عنهما ارتواؤهما، وأسفل العينين طيف تجعدات استقر تحتهما، وغرة شعرها وُشمت بالبياض.

لكنّ أسئلتها هي.. هي حية حائرة ما زالت تركض تبحث عن جواب، ولا جواب.

لماذا قلبي ينبض أمومة، ورحمي بتراء؟

لماذا أنا من دون البشر؟

هل أذنبت ذنبًا يستحق هذه العقوبة القاسية القاتلة؟

حتى حين أردت تبني طفل، وأصنع له معروفًا

يتذكرني به كان أبكمَ يعجز عن نطق كلمة انتظرتها على مدى عمري. رضيت بالحرمان من كلمة ماما؛ حتى لو كانت مزيّفة، إلّا أني عجزت حتى عن الحصول عليها.

ياه.. يا لسخرية الحياة، أردت أن أشتري الأمومة وارتضيتها منقوصة، فعزّت عليَّ..

ناولت سارة حبّة المهدئ، فنامت وهي تتوجع وتثرثر بأسئلتها، وأسماء الأطفال الذين أحببتهم، والدمى التي رافقتها إلى كل مكان.

استيقظت متأخرًا، كانت رائحتها تعبق في الغرفة، لكنها لم تكن موجودة، فاطمأننت لأنها خرجت، وأن عاصفتها البارحة عدّت بسلام.

دخلت المخزن، تناولت صندوق الصيد، ثم التقطتُ النايَ الذي ورثتهُ من جدّي، وغادرتُ إلى البحر القريب.

كان تناثر المتنزهين على المقاعد قد منح المكان جوًّا من المرح الوادع. أعددتُ صنارتي، وعجنت عجينة، ثم ألقمتها فم البحر. فتحت حقيبة طعامي لأجدها قد صنعت الأصناف التي أحبها. تناولت مكعبات السلطة على مهل، وارتشفت الحساء بتلذذ. ثم

اتّصلتُ بهاتف سارة، فلم ترد! تسرّب لي شعور غامض: أين هي؟ غريبة لم تترك رسالة!!

صنعتُ قهوتي وأنا أتابع خيط الصنارة اللامع، وكرتها التي تطفو فوق الماء. أراقب زرقة البحر المتلألئة، أتخيّل القاع والصنارة المتدلية بعجينة لعلها تغري سمكة. أفكر لماذا تأخّر النقر على الخيط؟ ربما العجين سقط، أو سمكة التهمتها ومضت تتلمظها خلف شعب مرجاني.

أخرجتُ النايَ الخشبيَّ القصيرَ، مسحتُ ثقوبَه، دلّكتُ جسدَه الأملسَ.

أبصرتُ في البعيدِ امرأة تقتعدُ صخرةً مغموسةً في موجِ البحرِ! الجلسةُ جلستهَا، والشَّعرُ شعرُهَا، وتقاسيم جسمِها هي.. هي.

تعجبتُ ما الذي جعل سارة تتجاهلني وهي تعرفُ أننا نقتعدُ كلَّ مساءٍ هذا المكان، منذُ أن هبطتْ أقدامُنا أرضَ منفانا؟!

أراقبها مخطوفة للبحر إلى نقطة بعيدة هناك قصيّة، تختبئ بين الموج المرتفع. خشيتُ أنّها تمضي لتحقيق أمنية تطفو بين تلال الزبد، قد وسوست لمخيلتي. ناديتها فلم تجبْ، لحقتها معاتبًا متلطفًا:

لماذا لم تلقِ التحية؟ تخطيتُ بصعوبةٍ الصخرة الأولى، ثم هبطت إلى الماء نحوها. أناديها فلا تجيب، يا سارة ارحمي مشيتي المتعبة. رشقتها بحفنة ماء خفيفة فالتفتتْ إليَّ وبعينيّ اقتحمت وجهها علّني أشلّ حركة جسدها. يُهيأ لي يسكن عينيها اشتهاء إلى القاع، تسوقها رغبة أن تترك خلفها ذكرى عبورها على هذه الأرض. طفح على ملامحها استسلام لأيدي الموت الرطبة الباردة. نهضت، ثم انتصبت على الصخرة الضخمة، وكأنها منحوتة متكلسة، شاخصة إلى الزرقة، مصلوبة في وجه الموج، ثم ألقت بنفسها بين أحضاني، وراحت تجهش بالبكاء. . .

كان نبضها يركض مضطربًا وأنفاسها تلهث، تحسست شعرها جمعته من بين أذرع الهواء في خصلة تبرق تحت سلاسل المغيب. قبّلتها، وشممتُ رائحتها.

التصقت بي أكثر حتى امتزجنا جسدًا واحدًا له قلبان، وأربع مآقٍ تذرف الدمع، حرارة جسدينا المتلاصقين، وزفرات أنفاسنا وشهقاتها المتعانقة منحتنا حلولًا وتوحدًا مغتربًا.

انسحبت برفقتها إلى الشط، كل منا يتعكز على صاحبه، والموج أسفلنا يتمايل بنا يدفعنا إلى عمق

البحر. مهاد من زبد أبيض يعبث ويتماوج بين سيقاننا، وحشائش البحر تدور حولنا.

نمشي والبحر ينحسر عنا؛ حتى وطئت أقدامنا رمل الشاطئ الهش الدافئ.

حملتكِ إلى غرفتنا بين ذراعي. ناولتكِ حبة المنوم التي أدمنتِها. كنت ساكنة متهدلة الأطراف، أدخلتكِ الفراش.

هذه الليلة قرأت في عينيكِ تلويحة الرحيل، وأبجدية الخذلان. هذه الليلة شيء غريب يحدث!

أضطجع جانبكِ ملتصقًا بجسدكِ. أخللُ أصابِعي خصلات شعرك، أمررُ كفّي على وجهكِ وصدركِ الذابل.

أستنشقُ أنفاسكِ، ورائحة عطركِ وعرقكِ.. أتلمس أطرافكِ. كان جسدك غضًّا دافئًا، رغم الموت الذي يقاسمني إيّاك. أهمس لكِ، قومي شاركيني في رقصة الوداع، على إيقاع الليل الذي يعزف تأبينك. ما أعذب ابتسامتكِ كما رأيتها لأول مرة مشرقة حالمة. أسمع همس شفتيك توشوش حكاياتكِ.

قومي هذا هاتفك يومض، لعلها صديقة تستغيثك وصفة من وصفات أمّكِ التي ورثتها.

أشعلي شموعًا، وأمطري الهواء رائحتك، بدّلي قسوة هذه الليلة المشرعة نوافذها لرائحة الغياب، وذلك الطفل الذي لم يأتِ، وقلبه الصغير الذي لم يخلق لينبض. بوجهه الطفولي، وملامحه التي تكتب حكاية القدر، وتروي عنا أحلامنا.

لم يخطر لي أن هذه الليلة هي ليلتها الأخيرة. وأني مدّدتها داخل تابوتها الأبيض.

أمضيتُ ليلتي معها، أسيرًا لجثتها، ظانًّا أنها غافية في نومها، أحاول بذر حقلها وحقلي براعم الأمل، لعلّ الصبح يسعفنا. طافت بي الظنون خاطفًا مجاديفي الواحد تلو الآخر.

بقيت وحيدًا ربما لأنني آدم المخلوق الأول الوحيد الذي ألف وحدته. أما هي حواء امتداد مني، وامتداد إلى بقية السلالة.

هي الأرض، والحرث، وخضرة النبات. أمّا أنا طيني لازب متماسك. لذلك لا طاقة لها بأتون حرمان عاطفة الأبوة والأمومة المستعر.

صمتت ساعاتها الأخيرة مغمضة العينين، هادئة، وادعة دون ضجيج، ودون أن يشعر بها رفيق حلمها الذي يلثم جسد الموت على هيئة أنثى.

كم كنت أتمنى أن أعرف متى توقف نبضها؟ وهل قلبها الآن يخفق للأطفال، أم مات معها الحب؟.

هذه ليلة الرحيل، فيها أعبر سجف الغد القادم، مجدفًا متسائلًا كيف سيكون؟!

كيف تستمر عجلة الحياة وحيدًا لا صوت يؤنسني، ولا جسد وروح يقاسمانني نهاراتي.. وليلي.

رحل عني كل شيء، وأنا الباقي الوحيد..

لو انقلب القدر، وبدل من أن تموت سارة يغيّبني الموت، هل ستشعر بما أشعر به الآن؟

قطعًا لا!...

رضيت سارة بأنصاف الحلول التي أقنعتها بها غريزة أمومتها، دفعتها لأن تعقد أو ترضخ للواقع وتحب الأطفال حتى لو لم يكونوا أبناءها. أحبت دمى جامدة، وحيوانات رعتها كرعاية الأم لصغارها، وطفلًا أصم متشردًا.

تلك الفكرة التي مانعتها أن أرعى ما لا أملكه، موهمًا نفسي بالأبوة. (أليس المربي في غير ولده كالباني في غير ملكه؟).

إلَّا أن الحياة ليست باختيارنا المطلق!

رحلت وخلّفت وراءها ذكريات ستنمو في قلوب كل الأطفال الذين قبلتهم، ومسحت رؤوسهم، سيتذكرها كل طفل مشرّد ينعم بدفء أنامل أمومتها التي كسته كنزة صوف، وقبعة تقيه سياط الشمس.

لعلي سأمضي ما كتب لي من عمر، ملقيًا بنفسي داخل دوامة الوحدة كحشرة تورطت في شرك. . .

أصحو باكرًا، وأعدّ فطورًا كما اتفق. ثم أرتشف قهوتي في الشرفة، ومعها صمت المنزل. وقد أقرأ كل الصحف، بعد هذا إن مسني الضجر أتسكع بين القنوات. قد أنهض أجري تماريني الرياضية حتى أحافظ على جسدي الوحيد. ثم أعود إلى كرسيي في الصالة لأغفو ملتهمًا الظهيرة، وقد أمضيت شطر نهاري دون أن أحرّك لساني، ولم أحادث أحدًا، ربما يعنّ لي أن أصرخ لأتأكد هل لايزال صوتي موجودًا لم يختفِ، أثرثر على نفسي حتى لا أنسى الكلمات كما ستنساني الحياة.

وقد أقطع الوقت بأن أطبخ. . أو أذهب إلى مطعم أتناول فيه غدائي على طاولة ذات كرسيٍ واحد ومن حولي الطاولات تضج وتصخب.

ثم بالمساء أذهب إلى الصيد، وأثرثر مع الجارة على البحر، وأعود كما ذهبت أطارد الفراغ ويطاردني.

سأبقى وحيدًا أنتظر نهايتي التي ربما ستكون متباطئة، أذبل فيها قليلًا.. قليلًا حتى أغدو عاجزًا عن تناول طعامي بنفسي، ويضمر بصري حتى يعجز عن قراءة قناني الأدوية التي ستزحم الطاولة الصغيرة القريبة من رأسي، ويقصر نفسي، ويتقطّع حتى أني أخالني لا أكمل زفرة نغم تتبخر من بين أناملي المتجعدة، وثقوب نايي الأثري.

أصبحت أقف على هاوية الغياب أنظر حولي، فلا أرى غير مسنين أحالت الحياة لون شعورهم إلى رماد أبيض، واشتعلت رؤوسهم متوهجة.

وأنظر أمامي فلا أبصر غير سفوح أمانيّ المتيبسة، أطل عليها من علٍ، قذفت بي إلى هنا كعادتها مع البشر! تغريهم في طفولتهم بالغد وبالحلم الذي سيكون.

وما أن تخطيت عنفوان فتوتي ورجولتي التي بذرتها أمنيات سأحصدها مواسم كُبرَى، فاكتشفت لمّا تخطيتها أن العمر، أو محاولة العيش انتهت وتضخمت فاتورتها، ولم يبقَ غير السداد! سداد أعجزني المشي في مناكبه.

أتأرجح على كرسيي الهزاز، تهدهدني مخاوفي،

ألتقطُ من الرف القريب الناي، أتشبّثُ به بكلتا يديّ، أقرّبه من صدري، أدنيه من شفتي، أخفض رأسي إليه في وداعة، تلامست شفاهنا الجافة الباردة والتحمت أفواهنا، ثم أستجمع مع أنفاسي. . كل كياني وأنفخ برقة.

يمتد النغم ويتحشرج شاحبًا من بين أصابعي المتطايرة كأوراق الشجر، يذروها هواء الخريف عبر ثقوب الناي. أدفع الهواء المحتبس داخل رئتيَّ، ومعه اشتعال حرقتي، ثم ينساب إلى الحنجرة الخشبية المنتحبة. أعزف وحيدًا، ولا رفقة لي غير هذه القصبة الملساء.

توقفت فزعًا متسمّرًا حين تسلق نظري لوحة معلقة تتوسط الجدار، وقد امتلأت وتشعبت داخلها شجرة العائلة التي ورثتها عن أبي. كطفل أحفر أسفل جذعها الغليظ، ثم أتسلقها وأتفرع مع كل غصن.

وصلت إلى غصن كتب عليه اسمي، غصن قصير نحيل، أصله المتفرع من الشجرة يشمخ إلى السماء، ولكن رأسه المحني المكشوط يهوي إلى الأرض، غصن هبت عليه ريح الخريف فذبل، وتساقطت ثلوج الشتاء فتيبس وتخشب، بل إن رحيق الشجرة لم يجرِ داخله، ولم يستنبت ولا ورقة واحدة هزيلة.

إني غصن أجرد أبتر، لن أهب للشجرة أعشاش الطيور، غصن وحيد صامت، ومن حوله أفنان متشابكة، وأوراق شجرة عتيقة يزحم تورقها غناء عصافير يتوق ريشها إلى الطيران.

قريبًا سيُحتطب الغصن أو سيسقط من تلقاء نفسه عن الشجرة، ويتحرر من قيدها، فيضجع أسفلها كأي شيء مهمل تافه لا يستحق أن يلتقط.

فكرت أن لا أستسلم لهذا القدر الذي يجعلني أبتلع فنجاني مرتين!

كانت الأولى أنفقتها بين ممرات اليأس وساحات الأمل، والثانية سيسلمني إلى هذه الوحدة الباردة، أو هذا القبر الذي يتجول صاحبه داخله.

أجدد منفاي! نعم أجدد منفاي مرة أخرى، فأنفي نفسي، أقذف بها من منفى إلى منفى.

قررت أن أدخل في مركز نقاهة للمسنين، وأنضم إلى أناس يقاسمونني الوحدة ذاتها.

فتحت الحاسوب وكتبت في جوجل دور رعاية مسنين. ظهرت أمامي النتائج. أنبش فيها لعلي أختار ما أظنه أصخب من منزلي هذا وأكثر ألفة.

الأول كان حكوميًا، والشكاوى عن فساده زاحمة شاشة حاسوبي.

الثاني كان في دولة باردة لا يناسب طقسها شيخوختي. الثالث.. الرابع.. السادس.. أفتش.. أبحث. نعم هذا هو..

مركز رعاية مسنين، ومنتجع خاص، شاهدت بعض صور نزلائه بعضهم شخصيات عامة، وبعضهم لصوص مال عام قدامى.

ياه.. ما أجمل القدر حين يفتح نافذة واسعة تطل على الغياب الاختياري.

فورًا حجزت تذكرة طيران، ثم أقفلت حاسوبي، ونهضت أعد حقيبة وحيدة مثلي.

لماذا أتردد فلا أحد يعنيني بهذا الكون، ولا أعني شيئًا لأحد. كل ما هنالك أني روح تزن غرامات يسيرة تبحث عن سماء. وما أن أشرقت الشمس حتى انتهيت من كل شيء، حشرت في حقيبتي عطر سارة، وكتابًا يحتضن شعرتها، ومهادًا طرّزته بيدها. حاسوبي ومستنداتي، وناي ورثته من جدي، ولا شيء غير ذلك، وقبل أن أقفل باب بيتي حانت مني التفاتة إلى حجرات منزلي، رأيت الدمى الثلاث تحتضن بعضها

بعضًا احتضان الوجل الخائف، وقطّها يعبث بطوق، ودعت عينيه الملونتين دون أن أشير إليه أن يترك استلقاءه أسفل مزهرية سارة.

عدت فتناولت الباقة، ومضيت.

طرقت باب الجارة أخبرتها أني مسافر لأمر طارئ، ثم ناولتها مفاتيح منزلي مخلّفًا قرب مزهرية سارة رسالة إلى جارتي، كتبت فيها وصيتي أن تهب دمى سارة الثلاث لأول أطفال يصادفونها، وهي تقرأ لأهليهم فناجينهم.

واعتذرت عن كتابة عنواني الجديد.

كان التاكسي ينتظرني ليقلني إلى المطار. قبل أن نسلك طريق المطار طلبت منه أمنية أخيرة أريد تحقيقها على هذه الأرض! أن يذهب بي إلى المقبرة فانحرف صوب طريقها.

كانت السيارة كلّما اقتربت من سور المقبرة، الذي يتراءى صغيرًا هناك في البعيد تكبر أمامي ذكرياتي التي أمضيتها. عند الباب المفتوح توقف التاكسي، غادرته إلى البوابة التي أجتازها والسكون الجاثم فوق القبور يشيّعني.

لا شيء هنا يشعرني بأني على قيد الحياة سوى قرع خطواتي البطيئة، ونسمات الهواء المجدلة تلامس وجهي، كلّما غيّبتني المقبرة تلاشى تدريجًا صوت ماكينة التاكسي، وبقيت خطواتي تهفو على الرمل كآلة تعزف سولو منفردًا.

أيقظني من انخطافي خفقة جناح حمامة فزْعى، تغريد عصافير تسكن شجرة معمرة.

أمشي وكثبان القبور حولي تتناسل، بعضها تشعر أن تحته حياة، وبعضها الجفاف والتيبس يفيض على سطحها، بعضها تناثرت فوقه حبوب العدس، واستنبت شجيرات خضراء غضة صغيرة، وبعضها جرداء كصحراء.

وقفت على قبر سارة صامتًا إلّا من ضجيج أنفاسي، أرجّح نظراتي بين باقة الورد، وقبر صاحبة الباقة!

ياه كل الذي يفصل بيننا هذا الرمل، ردم بين الشقاء والنعيم، بين تقلب من طبق إلى طبق، وبين السكون.

نحن جسدان أحدهما أنهى ما مضى، والثاني لايزال يرقب حاضره، ويستحلب الغد.

هل تبصرينني يا سارة؟...

لا أشك بأنك تبصرين وجودي اليوم هنا، وتعلمين ما الذي قررته في قادم أيامي.

أين تريدين أن أضع باقتك؟ هل تريدينها أن تزين رأسك، أم أضعها قرب قدميكِ اللتين أفناهما الركض؟ ربما الأنسب أن أضعها على نبع الأمومة عند سر قوتكِ وتحملكِ لهذه الحياة الشاقة، سأضعها على صدركِ.

رفعتُ رأسي عن قبرها، فوجدت معولًا ملقَى بجانبه، تناولته وضربتُ به الأرض، ففزعت حمامة وطارت، ضربت ثانية فاقتلعت حصاة متشبثة، هويت على الأرض بمعولي، وتطاير من حولي غبار وتراب، أهوي فيتطاير، أضرب فيزداد، أسرع فيسرع الدمع من عيني.

أشق الأرض والعرق يشق جبيني وخدي، أتابع الضرب وتتابع صور العمر تتراءى لي خلال الغبار، أتنفس هواءً ثقيلًا، وترابًا خانقًا، أحفر وزفراتي تشق صدري، تنبشها نبشًا، أعمّق الحفرة حتى وصلت إلى ركبتي، وقد تملكتني هستيريا الصور التي تتطاير من شق قبري.

أطير عاليًا في وجه الشمس ضحكة وذكرى، مع

كل التماعة معولي حفنة تراب للأحلام، وأخرى للخيبات، حفنة لأمنيات شبابي بحياة كسائر البشر، حفنة في وجه صورة الطبيبة السمينة، حفنة أدخلها في كل فوهات الحقن التي تناولناها، حفنة أملأ بها كل مثلثات قبعات الأطفال التي رقصت حول سارة.

كنت أشعر أن مشهد العالم يرتفع أعلى وأنا أهبط ببطء داخل حفرة تلتهم جسدي، أحفر ورائحة الغبار غيوم تتراكم فوقي، أكاد أحاذي باقة الورد، وتطاولت أكثر تلك الشجرة العتيقة الغائبة خلف ليل الغبار، وكأن كل رمم المقبرة تنظر إليَّ.

انتهيتُ، ثم قذفتُ بالمعول عاليًا، ومضيت مخلّفًا ورائي قبرًا متثائبًا ينتظرني، وقبرًا آخر غرست فوقه باقة ورد جهة صدر أنثى، أنفقت عمرها انتظارًا. . . !

سُولو

أتأرجح على كرسيي الهزاز، تهدهدني مخاوفي، ألتقطُ من الرف القريب الناي، أتشبّثُ به بكلتا يديّ، أقرّبه من صدري، أدنيه من شفتي، أخفض رأسي إليه في وداعة، تلامست شفاهنا الجافة الباردة والتحمت أفواهنا، ثم أستجمع مع أنفاسي.. كل كياني وأنفخ برقة.

يمتد النغم ويتحشرج شاحبًا من بين أصابعي المتطايرة كأوراق الشجر، يذروها هواء الخريف عبر ثقوب الناي. أدفع الهواء المحتبس داخل رئتيَّ، ومعه اشتعال حرقتي، ثم ينساب إلى الحنجرة الخشبية المنتحبة.

أعزف وحيدًا، ولا رفقة لي غير هذه القصبة الملساء.

صدر له رواية نزل الظلام الحائزة على المركز الأول جائزة الأمير سعود بن عبد المحسن للرواية السعودية، والتي ينظمها نادي أدبي حائل عام 2012 م.

بريد majed.aljared@hotmail.com

ISBN 978-614-404-526-8

9 786144 045268

رقم الإيداع: 1581/ 1435

ردمـــــــك: 0 - 77 - 617 - 9960 - 978